السقف

و

الناب الأزرق

روايتان

فؤاد قنديل

المــؤلــــف : فؤاد قنديل
الكتــــاب : السقف والناب الأزرق
النـاشــــر : نـــادى القصـــة
الطبـعـة الأولى : ٢٠٠٣ م
رقـم الإيـــداع : ٢٠٠٣/٩٦٦١

نـــادى القصـــة
٦٨ شارع قصر العينى القاهرة ت : ٧٩٤١٩٢٩



هيئة المكتب

إهداء

إلى زوجتي الغالية

إلى نهى ودينا وكريم

إلى حفيدى كريم

وقبلهم جميعا

إلى عبد الناصر .. حبى الأول

فؤاد قنديل

أولا

الانفجار

« ان مادته ليست هنا
لأن ما ترون ليس سوى أدنى الأجزاء
ولو كان الهيكل كله هنا
لوجدتم أن ارتفاعه ضخم جسيم
لا يكفى سقفكم أن يحتويه »

مما قيل عن شبح تالبوت
فى مسرحية هنرى السادس لشكسبير

صحوت من نومى مذعورا على صوت ارتطام شديد. أصخت السمع، مفتوح العينين، لم يبلغنى غير صدى الصمت المكمور.

نهضت بجذعى العلوى، ونهضت زوجتى

مضينا نبحلق فى الظلام بعيون فزعة . نسأل العتمة. نفتش فى أثاث حجرة النوم عن سر هذا الدوى الهائل.

كان هائلا حين صك سمعى وأنا فى أعمق أعماق النوم.

جسدى مكدود . ملتصق بالسرير. جفونى متشبثة بجفونى. أهدابى تكلبش فى أهدابى .

من خلال زجاج الباب، تسرب إلى عينى بصيص من نور المطبخ.

حريص أنا على أن يبقى مصباحه الكليل مضاء طيلة الليل، يؤنس وحشة المستيقظين .

مددت يدى وضغطت زر المصباح المجاور لى.

أول ما فكرت ، فى ابنتى الصغيرة نوسة التى تعدت العامين بشهور .

بحثت عنها فى سريرها الصغير وهو معنا فى نفس الحجرة.

ألفيتها فيه، لكنها دارت ودارت حتى أصبح رأسها فى موضع

قدميها.

حملقت فى الغرفة وحملقت زوجتى.

هل كل شىء فى مكانه ؟

فى مقدمة ما خطر ببالنا كسبب لهذا الضجيج أن كرسيا مال ووقع، أو ربما هى القطة التى عودتنا على الزيارة كل ليلة.

قفزت ولا شك فوق المنضدة. أوقعت الكوب أو أصيص الزهور.

شىء ما من هذا القبيل.

لا يستطيع أحد منا أن ينكر أنه فكر - بغريزة الخوف الكامنة - أن بالبيت لصا . وأن هذه الضجة سببها تعثر اللص فى كرسى أو منضدة صغيرة، أثناء سعيه الحثيث فى جمع ما تقع عليه عيناه.

حام هذا الخاطر بحماس فى ذهنى.. فى ذهنى أنا على الأقل.. لأن وجود اللص فى بيتنا معناه أن أتحرك.

على أن أفعل شيئا ما يعبر عن شجاعتى من ناحية، وينقذ الدار مما يحيق بها من ناحية أخرى.

ليس من المقبول أن أسمع كل هذه الفرقعة التى أعلن بها هذا اللص الخائب عن نفسه، وأظل قابعا فى السرير، أحملق فى الحجرة وأخمن.

لكن زوجتى حادة البصر قالت فى فزع وحدة :

- انظر .. إن زجاج الباب مكسور.

وجهت بصرى إلى حيث وجهت بصرها .. إلى زجاج الباب .. بالفعل كان مكسورا. اذن فقد آن أوان العمل ودقت ساعة المخاطرة.

نزلت من السرير. أسرعت أنظر إلى الردهة من خلال الفجوة. أفتش عن سبب كسر الزجاج. أود لو أتعرف على الجانى قبل أن يفلت.

لم ألحظ ما يثير التفاتي. أطبقت يدى على مقبض الباب. جذبته لأخرج وأطمئن على باب الشقة والمنافذ.

تولتنى الدهشة، فحين جذبته لم يفتح باب غرفة النوم.

عالجت المقبض وجذبته من جديد. لم يطاوعنى. بقى الباب الخشبى مكانه.

مسحت الباب بنظراتى من أسفله إلى أعلاه. الباب له مقبض فقط دون قفل. لم لا يفتح!

عاودت الجذب بشدة. لاحظت تشبث الباب بالأرض. بعنف هزتنى الدهشة.

كان الباب يعلو الأرض بفارق كبير لا يقل عن سنتيمتر، وأذكر أنه كانت فى بعض الأحيان تعبره الفئران، وتراكم كسلى عن الاستجابة لدعوة زوجتى باستكماله بشريحة من الخشب .

اختفت هذه الفرجة حتى غدت التحاما كاملا بالأرض.

عاودت الجذب، فإذا الباب مقيد تماما بالسقف أيضا، وكان بينهما فارق يسير . فأين ذهب ؟ أين ذهبت كل هذه الفروق؟

بدا الباب كأنه يود مطاوعتى من أوسطه، لكن طرفيه العلوى والسفلى يأبيان الاستجابة، ويصران على التمسك بالأرض والسقف.

كانت زوجتى طوال محاولاتى الخروج من الباب، والتخلص من خيوط الدهشة التى تعثرت فيها، تواصل حديثها، وتذهب ظنونها مذاهب شتى.

لم يكن سمعى كله لها. كانت حواسى جميعها معى فى معركة الباب، ولا أكاد أذكر من كلماتها الا قولتها العلمية الشهيرة :

– لا تنس أن الخشب يتمدد بالبرودة .

وتقصد أنه يتمدد بالماء، أو بالتحديد تقصد أن الخشب ينتفش فى الشتاء، فيحتك بالأرض على هذا النحو ..

لم أعترض على كلامها، على الرغم من أننا كنا فى شهر مايو.

ظل سيل كلماتها يواصل الانهمار، وأنا أحاول قدر جهدى منعها. لكن ذلك كان على ما يبدو وقوفا فى وجه الشلال .

كنت فى عالم غير عالمها. هى مستغرقة فى البحث عن الأسباب من وجهة نظرية بحتة، وأنا أحاول التركيز لبحث الأمر من وجهة عملية .

أريد أن أعرف من الذى حاول سرقتنا؟ وماذا سرق ؟

أريد أن أعـرف لماذا أغلق علينا البـاب على هـذا النحـو العنيف ونحن فى غفلة كاملة، لولا صراخ الزجاج المتفجر :

تذكرت الأولاد وتساءلت . ألهم علاقة بالموضـوع ؟ لا أقصد طبعا أن يكونوا هم الذين أوصدوا الباب ، ولكنى أسأل .

هل السارق أو المقتحم دارنا، حاول ايذاء أحد من الولدين مجدى أو جمال اللذين يناما فى الحجرة الداخلية، فاضطر إلى إغلاق الباب علينا حتى لا نحول بينه وبين ما يبغى.

لم يطل حبل تفكيرى لكن حماسى اشتد فجأة.. جذبت الباب بشدة . فبرز طرفه من حلقه العلوى، أخذت أجذبه عدة سنتيمترات، تتلوها عدة سنتيمترات حتى فتحته إلى آخره.

فوجئت بالزجاج المتناثر داخل وخارج الغرفة، بدت الشقة كأنها مقهى شهد معركة ساخنة بين مجموعة من الخاسرين على منضدة القمار.

لم تكن المساحة التى يشغلها الزجاج فى الباب غير «شراعة» مربعة تنقل النور بالليل من المطبخ إلى الغرفة، طول ضلعها لا يتجاوز نصف المتر يقسمها قضيب خشبى.

أسرعت إلى غرفة نوم مجدى وجمال. ألفيتهما بخير، وفى شغل

شاغل بأحلامهما عما نحن فيه.

عدوت إلى باب الشقة، وزوجتى فى إثرى، تساندنى فى مواجهة اللص المحتمل.

وجدت باب الشقة مدقوقًا فى مكانه، يؤدى واجبه الليلى فى استبسال. لم يتعرض له أحد بالعدوان.

كل من المزلاج الصغير والمزلاج الكبير فى خندقه، والمساحة الزجاجية الصغيرة سليمة، والشبكة الحديدية من خلفها كما هى. لم تمس .

الحمام والمطبخ . كل الأبواب والنوافذ سليمة. شىء غريب.

قعدت على كرسى الردهة ، أتأمل الموقف وأزنه، أحسبه. أجمعه وأطرحه، أعود فأضربه وأقسمه .

وأنا بعد كل هذه العمليات التى يذهب بعضها فى مجال الهندسة، وبعضها الآخر ظنون فى الطبيعة وبعضها الآخر فى الالهيات . لا أحقق أى نتيجة.

ظل فكرى مقيدا بحدود الدهشة والاستغراب.

كانت كلمات زوجتى وأفكارها تتوالى بشكل متواصل زاد ارتباكى وأقعد فكرى.

– من الممكن يا أبو مجدى أن يكون كذا .

- ومن الممكن أن يكون كيت .

- يجوز يا أبو مجدى أن يكون .

- لا نستبعد أن يكون السبب هو .

- قالت لى السيدة أم أحمد ساكنة الدور الثانى فى العمارة المجاورة أن الجدران بالليل..

لم أستطع أن أمسك بالخيط المعقول الذى يوصلنى إلى سبب ما حدث .

صرخت فيها من غضبى.

- يا سيدتى اهدئى.. اهدئى قليلا .

انكتمت .

وأشعلت سيجارة كأنى فى راحة بين شوطى مباراة .

* * *

تصاعد احساسى بحرارة الشقة وشعرت أنى داخل علبة محكمة الاغلاق.

فى ظل سكوت زوجتى ومع دخان السيجارة هدأت أعصابى.

لما اطفأتها قلت :

- على أى حال حصل خير .. هيا بنا ننام والصباح رباح .

وقبل أن أنهض .

نعم قبل أن أحمل نفسي حملا عن الكرسي دوى في سكون الليل انفجار وارتطام .

التوت رقابنا مع الصوت . تنبه وعينا . أفقنا من الدهشة والفزع . توجهت آذاننا - دون أن ندرى - إلى المطبخ .

أسرعنا . ألفينا زجاج نافذة المطبخ قد تحطم.. بدت فجوة الظلام غير منتظمة الحدود . فتات الزجاج مبعثر على الأرض وعلى الثلاجة وفي الحوض وبين الأواني.

الزجاج يتفجر ونحن أيقاظ .

لم نجد لصا ولا حجرا.

دقيقة واحدة لم تمر ، حتى صك أسماعنا ارتطام . أدركنا للوهلة الأولى أن مصدره باب غرفة الأولاد .

فزع جمال وبلغتني أصداء جهوده لفتح الباب . ذهبت إليه . عاونته حتى خرج.

- ماذا هنالك يا أبي ؟ . هل بدأت الحرب ؟

لأني لم أكن في كامل وعيي قلت له وربما لم أكن أنا الذي قلت.

- محتمل.

توالت الانفجارات والارتطامات. استيقظ مجدى ولم تستيقظ نوسة ، ربما لحاجتها للنوم بعد شقاوة النهار كله .

توزعنا فى الردهة الرحيبة . ينظر كل منا للآخر ثم يبحلق فى اللاشىء.

لا ينطق أحد بحرف بعد السؤال الأول .

– ماذا جرى ؟

أقصى ما يمكن قوله ردا عليه .. لا نعرف يا بنى كما ترى . لا حرب هناك ولا غارات.. لا لصوص ولا مشاجرات. لا يوجد بالشارع أطفال ليقذفوا البيوت بالطوب .

وغير ممكن لنا ونحن بالليل أن نقول : أصابه سرطان شمسى.

لم نكن ننطق بأية كلمة ، لأن هذا السلوك الغاضب من جانب الأبواب والنوافذ ، كان متصلا ومتتابعا ، كأنها شخصيات تؤدى أدوارها بحماس فى مسرحية تقرر أن يكون عرضها الليلة فى بيتنا.

باب المطبخ ، تتلوه نافذة الحمام، بعدهما باب الشرفة، ثم نافذة غرفة الأولاد .

أمكننى أن أدرك – بعد فترة – أن هناك ضغطا ما أو ثقلا على الجدران لا أدرى سببه . ولأن الأبواب من الخشب والزجاج أى أنها أضعف ما فى الجدران، فهى تنوء بالثقل أو الضغط الواقع عليها وتتحطم.

أسرعت بخلع ما لم يتهشم.

خلعت أنا باب غرفة النوم، فى نفس الوقت خلع مجدى نافذة الصالون، وخلعت زوجتى بمساعدة جمال باب الحمام ونافذته.

خلعنا بأيدينا..

خلعنا بأيدينا كل منافذ الدخول والخروج فى بيتنا العريض.

ورغم قيامنا بهذا الجهد إلا أن الانفجارات كانت تسبقنا لتحطم الزجاج أولا .. وتتوالى بعد ذلك فرقعتها كمجموعة من القنابل الزمنية التى يضعها الأعداء، بحيث لا تنفجر كلها فى وقت واحد ولكن فى أوقات متتابعة. دقيقة بعد دقيقة .

تحولت الدار كلها إلى دهشة وفزع وخوف وعجز. وأنا من فرط الحيرة جلست أدخن وأدخن ..

أرنو بأسى للأبواب التى تحطمت .. بصعوبة شديدة أفكر فى الله وأتمسك بأحباله المتدلية من السماء. علها تشدنا وتنقذنا من هذه الهوة .

وبعد أن شبعت كل الأبواب تفجيرا وتكسيرا، حسبت الحسبة، فوجدت أن الكل تقريبا قد عبر عن رأيه وشعوره فى الضيق الذى يحيط به والضغط الذى يقع عليه .

هدأت الساحة وخيم صمت حزين، وساد سكون مهدد .

أمرت زوجتى والولدين بالذهاب للنوم .

أصرت زوجتى على أن أسبقها إلى الفراش. فأبيت وألحت.

سبقتها اليه .

أسرعت قبلى إلى النوم .

* * *

طلع علىَّ النهار .

رغم أنى كنت مفتوح العينين، واعيا تماما بكل ما حولى، إلا أن نور الصباح نفذ إلى كل مكان دون أن أدرى.

فجأة تبينت أن الضوء يشمل كل شىء وهذه عادة النور، يأتى متسللا وبطيئا.. ينزع أنفاسه بصعوبة ويتقدم إلى الناس على استحياء .

أما عادة الليل فقد عهدناه يأتى مندفعا متعجلا، ولطالما فوجئت بأستاره السوداء تسدل على الكون دون مقدمات وكأنها بلغت بالأمر فى آخر لحظة ..

فجأة نجد الدنيا مظلمة . كئيبة وتعسة.

طلع على النهار وأنا فى الشرفة أرنو للوجود فى أمل.. أشكو نفاد سجائرى، وأزفر أنفاسى بلا دخان .

أمامى النيل يمتد كثعبان ضخم. يتلوى . يزحف فى صمت من الجنوب إلى الشمال، كأنه بهيمة تدور فى الساقية. لا يكف. يتدفق فيه الماء، وعلى جانبيه تمتد الخضرة بلا نهاية.. بدا مجهدا.

الأسى يتقطر فى قلبى، وأحس لقطراته نبضا يهز كيانى.

خطر ببالى أن أقرأ .. أختبىء كعادتى فى القراءة.. أزجى بها الوقت الممل. لم أتحمس للفكرة .

تركت الشرفة المطلة على حديقتى والنهر العظيم. توجهت الى الشرفة الخلفية المطلة على العمران .

الديار والشوارع ملأتها الناس والسيارات والباعة حركة وحياة.. بدأ يوم جديد.

مرت نظراتى بكل بيت. تفتش أبوابه وزجاجه. تهزها وتحوم حولها. كل البيوت هادئة مستسلمة .

كل النوافذ والأبواب فى أماكنها والزجاج سليم.

تساءلت :

لماذا بيتنا نحن ؟.. لماذا بيتنا نحن !.

* * *

ثانيا

التقرير

« الليل عميق والدار صامتة

وأعشاش العصافير مسربلة بالنعاس.. اذكرى لى

من خلال عبراتك المترددة، من خلال بسماتك

المضطربة . من خلال خجلك العذب وآساك .

اذكرى لى سر قلبك »

طاغور

لست أدرى لماذا انتظرت حتى استيقظت زوجتى . طلبت منها ألا يقترب الأولاد من الزجاج المحطم والخشب المهشم .. وكأنى وكيل نيابة يرجو عدم المساس بالجثة ومكان الحادث أو الدنو من الأشياء إلى أن يحضر خبير البصمات .

لم أفكر فى هذا .. بل لم أفكر فى شىء على الإطلاق.. ما حدث قد حدث .

لملمت نفسى على أى صورة وكما اتفق . ذهبت إلى العمل ، أشعث الشعر ، أصفر الوجه ، بلا ربطة عنق ، على عكس ما عرف عنى وعن هندامى، تلقانى الطريق فضيع خطواتى ، بعثرها فى كل اتجاه .

لم يكن ذهابى إلى العمل عن رغبة حقيقية، ولم يكن محاولة للهروب من مواجهة المشكلة، فلست أنا الذى يخشى المسئولية أو ينهار أمامها وينقب عن مفر .

حتى لو فكرت فى الفرار ، ستتشبث حتما بى أصوات الانفجارات وتفضحنى النوافذ المفتوحة .

مضيت إلى العمل كى أبحث عن السبب وأسأل عن الحل .

اعتدنا التشاور أنا وزملائى بالمكتب عند كل ملمة . وفى كل أمر من الأمور ، يعرض كل منا ما يحس به ، مهما بلغت مشكلته من الخصوصية حدا بعيدا .

تعجبوا وتعجبوا .. ولم يصدقوا .

ظنوا وظنوا .. لكنهم أخيرا أشاروا على بأن أسأل أحد المهندسين المعماريين، فلديه بالطبع إجابة أو تفسير لهذه الظاهرة، أو على الأقل رأى فيها .

بدت لى وبدت لهم سذاجتى حين سألتهم عن المهندسين إذا كان من الممكن أن أبحث عنهم فى دليل التليفون .

قالوا جميعا فى بساطة : بالإدارة الهندسية فى مجلس المدينة .

بعضهم من المحنكين، المغرمين بقراءة ومتابعة الحوادث بالصحف اليومية والأسبوعية ، أشار على بإبلاغ البوليس من باب الاحتياط .

- لن يضيرنا أن يحرروا محضرا بالواقعة. نحفظ به أية حقوق مستقبلا .

انهاء للمناقشة الطويلة المملة التى لم أحتملها ولم أحتمل جوها، وافقت .

ليس اقتناعا بأن الأمر يحتاج إلى الشرطة ، فقد تيقنت تماما بأن

المسألة تخص منزلنا كبناء ، وليست هناك أى أحداث جنائية أو اعتداءات خارجية أو حريق، ولم تحدث سرقة ولا توجد هناك تهمة من أى نوع، وليس لنا فى الموضوع خصم أو عدو على الأقل بالشكل المباشر والمعروف.

لذلك توجهت شطر مجلس المدينة.

اجتزت الباب الضخم .

واجهتنى أبواب زجاجية كثيرة، بل وجدران كاملة من الزجاج.

بين الجدران والأبواب تجلس وتتحرك مجموعات نملية من الموظفين، يصدر عنهم طنين عال .

أشفقت عليهم من هذه الأبواب، فى حالة حدوث ضغط عليها.

انفجار مربع واحد من الزجاج سيصيب منهم عشرات .

نمل . نمل . نمل

نمل يفعل كل شىء وأى شىء ، يرسم ويطبخ ، يعمل ويأكل ، يكتب ويتفرج . يدخن ويضحك، يبكى وينام.. يتسلى باللعب والكلمات المتقاطعة وغير المتقاطعة .

سألت عن الادارة الهندسية . دلونى عليها . بلغتها .

حسن حظى أوقعنى فى مهندس طيب . أخبرته بما حدث. أحس بغرابة قصتى. أهال عليها اهتمامه .. خفف قلقى وشاركنى فيه .

اقتنعت بعد الاستماع إليه بأنى فى هذه الدنيا يتيم . قرر المهندس أن يتبنانى.

- والحل يا سيدى .

- قدم طلبا تذكر فيه ما حدث بالتفصيل.

كتبت

أخذ الطلب وعرضه على وكيل الإدارة هامسا بتوصياته وما يتعين عمله . حصل على تأشيرة بخروج مهندس معى للمعاينة. صعد إلى مدير الادارة. عاد بتوقيعه إلى وكيل الإدارة لتحديد المهندس . فوضه الوكيل .

خرجت أنا والمهندس .

سرت فى الشارع فرحا ، لا أفكر إلا فى فضل الله على.. كان كريما معى، فلم يوقعنى فى بئر الاجراءات الحكومية، وهى كفيلة بأن تدفعنى لهجر منزلى والدنيا كلها. شكرت الله الذى لم يرد لى عذابا روتينيا أقسى من العذاب الفعلى، المتمثل فى مشكلة الانفجارات .

عدت أتذكر البيت .

* * *

دارى موقعها جميل. يراه الناس غاية فى الجمال. يحسدوننى عليها، الواجهة عريضة تطل على النيل مباشرة. مساحتها كبيرة

نسبيا. تفصلها عن النهر حديقة خصبة تزهو بخضرتها وربيعها الدائم. تنمو فيها كل البذور وتثمر فيها كل الأشجار .

أما الدخول إلى البيت، فمن الخلف عن طريق ممر يفضى إلى الحديقة ، التى يحيط بها سور حديدى بسيط .

* * *

طاف المهندس الطيب بالبيت الفسيح .. أعجب بتنسيقه. بارتفاعه واتساعه، بمنافذه وشمسه وهوائه، ببنائه المتين، بجدرانه السميكة الصلدة رغم قدمها، بدرجات السلم الرخامية المفضية إلى النهر . تتخللها العروق الصفراء، اللامعة كجذور الذهب.

راعته فخامة الأعمدة عندما استقبلته الردهة وبهرته الثريات الضخمة. أثنى على البلاط الذى لم يجدد منذ عشرات السنين، دون أن يتكسر من طول الاستعمال أو يهبط فى أى موضع. أثنى على السقف الحديدى الضخم .

فحص كل ثقب فى البيت. اطلع على خريطة المبنى وأوراقه. كلها مسجلة وموثقة. رغم أنه بنى فى وقت لم يكن فيه توثيق ولا تسجيل .

كانت مثل هذه الأمور لا تزال عند أهل زمان مجهولة من الوجهة الرسمية، وكانت عمليات البناء تتم عشوائية وبلا تخطيط .

كنا نعرف ما يجب عمله.. أقصد طبعا أجدادى رحمة الله عليهم.

قاس المهندس المسافة بين الأرض والسقف فى أكثر من عشرة مواضع. وضع علامات سنتيمترية لمسافة نصف متر فى أربعة أركان، فى أسفل الجدران، بحيث تبدأ من أسفل متدرجة إلى أعلى .

قال وهو يبرح الدار، أنها بالفعل ظاهرة غريبة. جديرة بأن ينشغل بها المرء، حتى لو كان من غير ساكنى البيت وفى مجال غير مجال الهندسة والبناء.

ثم قال :

– يتعين على أولا أن أطلع على تقسيم المنطقة ومن المؤكد أن يحتاج الأمر إلى إعادة الزيارة مرتين أو ثلاث، ولابد من أخذ رأى أكثر من جهة مسئولة ومختصة، وبعدها يمكننى أن أضع التقرير الفني، ولن يرى النور قبل مضى أسبوع من جمع هذه البيانات .

– ومتى ينتهى كل هذا ؟

– الحقيقة أن المسألة ربما تطول .

– أرجوك يا باشمهندس.. أنت ترى الوضع بنفسك.

مط شفتيه .

– وضعنا غريب ومزعج.

– نعم .. نعم ولكنك تعرف الاجراءات، كما تعرف أنها مسئولية.. حياة أرواح.

- أوافقك، ولكنى أطمع فى متابعتك واهتمامك شخصيا بالمشكلة.

* * *

جلسنا بعد ذهاب المهندس نفكر جميعا فى مسألة المنافذ المفتوحة وكيف نسدها، ولو مؤقتا إلى حين معرفة السبب وأصل الحكاية .

اتفقنا على تعليق البطاطين القديمة على النوافذ الخارجية ودقها بالمسامير حتى تصمد للريح، الصيف على الأبواب ولن نحتاج إلى أغطية كثيرة.

زارنا المهندس خلال الأسبوع الأول مرتين. اطلع خلالهما على العلامات الركنية التى وضعها على الجدران فى كل سنتيمتر .

حاولت أن أستفسر عن الظاهرة فلم يجبنى إلا بأنها مازالت مجرد تخمينات وفروض تعوزها الأسانيد .

اقتات الأسبوع التالى بأيامه وساعاته من أعصابى.. لم أحتمل. اتصلت به هاتفيا.. أبلغنى أنه أوشك على الانتهاء من عملية جمع البيانات وبعدها سيبدأ كتابة التقرير .

* * *

توجهت بعد أسبوع إلى مجلس المدينة والتقيت بالمهندس. عرض علىَّ مسودة التقرير الذى سيرفعه إلى وكيل الإدارة ومديرها.

جاء فى تقرير المهندس أنه بناء على المذكرة المقدمة من المواطن...

بشـأن... وبناء على تكليف سيـادتكم لى بـ ... فـإنه فى يـوم ... سنة .... قمت بالانتقال إلى السكن الكائن... ملك المواطن سابق الذكر ...

وبمعـاينتـه أيام ... ، ... ، ... تبـين مـا يلى ... .

إلى أن يقول :

ولا علة فى رأينا لهذه الظاهرة إلا أن يكون قد حدث تسرب لمياه جوفية تحت المبنى، أدت إلى رخاوة فى الأساسات وتحلل فى موادها الصلبة.

ونظرا لأن السقف من كمر الحديد الضخم، بما يمـثل ثقلا غير عادى، ولأن الجدران من الحجر الجرانيتى الصلد خالى الجير، فقد هبطت الجدران التى تحمل السقف الثقيل، وأصبحت تغوص بشكل يكاد يكون منتظما.

إذ بالمعـاينة تبين أن السـقف يهبط ، دافـعا الجـدران من تحتـه للغوص فى الأرض المشبـعة بالماء بمعـدل شبـه ثابت، وهو نصف سنتيمتر كل أربع وعشرين ساعة.

وقـد أمكننا تحـديد نسـبـة الهـبـوط بالاسـتـعـانة بالعـلامـات السنتيـمـترية، المتدرجة على الجدران فى مـواضع مـختلفة، وقـد أوضحت جميعا هذا الهبوط المتعادل فى كل المواضع.

واذا استمر ضغط السقف على الجدران، وهبوطها بهذه النسبة التى انتظمت لأكثر من ثلاثة أسابيع، فإننا نرى إخلاء المنزل من ساكنيه فى موعد أقصاه سنة من تاريخه، لأن ارتفاع الجدران أربعة أمتار وبعد عام لن يتبقى لهم غير مترين. الأمر الذى تتعذر معه الحياة.

هذا وقد أطلعنا على... وعلى ...

واذ نرفع هذا لكم آملين الأمر باتخاذ اللازم، نرجو أن تتفضلوا بقبول خالص الاحترام .

مهندس ......

* * *

انضم إلينا كل مهندسى المكتب، يستمعون ويدهشون. ينظرون إلى، كأنى شخص حكم عليه بالاعدام بلا جريرة. شخص يستحق كل عطف البشر وإشفاق كافة مخلوقات الله.

قلت لأهرب من نظراتهم وأدفع أذهانهم للعمل، للبحث عن وسيلة لإنقاذ الموقف.. موقفى التعس :

– والحل يا باشمهندس.

– تتركون البيت.

– ماذا ؟

– حالة البيت خطرة ولا يصلح مطلقا للمعيشة فيه.

– ودوركم ؟

– أخلينا مسئوليتنا.

– ألا يوجد حل آخر ؟

– الحل الوحيد مغادرة البيت .

* * *

مشيت أجر قدمي.. تعوى الظلمات بأمعاء روحى .. لابد إذن أن نرحل. نرحل عن بيت الآباء والأجداد.. أصبحت الحياة فى منزلنا مستحيلة، وأمامنا فرصة لا تزيد عن عام، وبعدها نكون فى الشارع.. فإلى أين نرحل ؟

لا توجد بالمدينة كلها غرفة واحدة منذ سنين .. جارنا الطبيب يبحث لابنته عن شقة لتتزوج فيها منذ ثلاث سنوات دون جدوى.

ثريا ابنة الأستاذ شفيق اضطرت بعد سنتين أن تتزوج فى بيت أبيها . و .. و ..

أين نذهب ؟

ولماذا نحن دون الناس ؟

دارنا لم تزل وطيدة الأركان ، متينة البنيان . فلماذا يتعين علينا أن نرحل عنها.

الماء .. الماء تحت الجدران.

لماذا لا ينتقى الماء لنفسه موضعا يستقر فيه إلا تحت جدراننا.

عبثا سألت .. وسألت .. لكن الناس حتى العلماء منهم أصابهم الجهل فجأة.

دارى. مقرى. تاريخى. عنوانى. يعرفنى الناس بها ويعرفونها بى.

جاء الوقت الذى يتعين على فيه أن أبرحها !

أتخلى عن حديقتها المزهرة ونيلها الصافى الرقراق .

كنت أجلس على شاطئه كل عصر ، وأرقب معه كل غروب، فكان أنيسى وصديقى وملهمى.

والمصلى العزيز الذى أقامه جدى بالقش ، وبنى أبى حوله سوراً من الحجر .

كان جدى وأبى من بعده - رغم توفر المياه فى الصنابير - يحب أن يتوضأ فى ماء النهر ، ورغم الأبسطة الشيرازية الفخمة التى تمتلئ بها الدار كان يصلى على القش. وتحت شجرة الجميز الضخمة التى تجاوز عمرها مائة وعشرين عاما.

فيك يا دارى.

أنفاس أجدادى. ذكرياتهم . بصمات أصابعهم.. آثار أقدامهم. زفير دخانهم. أنين جراحهم.

فيك يا دارى

ضجيج فرحهم، وثورة غضبهم وحلاوة سهراتهم. فيك اخضرار آمالهم وحدة صراعهم وطول صبرهم.

.. ..

أخبرت زوجتى بما جاء فى التقرير فأنشأت تبكى .

وقعدت أدخن .

ثالثا

إلى الكوخ

« كيف أميت النور بعينى
هذى الشمس المحبوسة فى ثنيات الأيام تتّثاقل
كل صباح ، ثم تنفض عن عينيها النوم ومع النوم الشفقة
وتواصل رحلتها الوحشية فوق الطرقات »

الحلاج

مسرحية صلاح عبد الصبور

عدت يوما من عملى وانحنيت خضوعا للباب القصير الذى غاص نصفه فى الأرض . اجتزت الردهة فى طريقى إلى غرفتى . بلغنى من حجرة الصالون صوت زوجتى .

– وطلبت منه أن يرسل إلى أخى الأستاذ فى أمريكا.. نعم .. أستاذ فى جامعة هناك اسمها كفرونا .

ورد عليها صوت نسائى :

– أعوذ بالله كفرونا .. ولماذا يبقى هناك ؟

عرفت أن المتحدثة هى جارتنا أم أحمد . لم تكن بى رغبة فى حديث . لكنى أردت أن أنقذ زوجتى من جهلها .

تحولت إلى الصالون.

– كيف حالك يا ست أم أحمد ؟

– أهلا يا أبو مجدى .. قلبى معكم.

– أخوها يعمل أستاذاً بجامعة كاليفورنيا .

– ألم أطلب منك مرات عديدة أن تكتب إليه ؟

– ماذا تفيد الكتابة ؟

– يعرف أكثر من كل مهندسى المدينة .

– العبرة بالتنفيذ لا بالكلام النظرى الذى سيبعث به من هناك .
إذا كانت الآراء هى المهمة فالآراء هنا مكدسة ، وإذا كانت الأهمية للأفكار والنظريات فـهى ملقاة فى بلادنا على الأرصـفة لا تجـد من يجمعها .

– مهما كان الأمر فالمشورة خير .

– لا يشك فى هذا بشر .

– إذن أكتب إليه ، حدثه بمصيبتنا . أنت لم تكتب إليه منذ عامين.

– كتبت ولم يرد .

– أنت تعلم أنه مشغول .

* * *

مضيت إلى حجرتى . وتبعنى حديثهما رغم أنى وضعت الوسادة فوق رأسى .. ورغم انصراف أم أحمد .

* * *

بقينا شهورا نراقب البيت . السقف والجدران . الأشياء المعلقة على الجدران . نعجب كيف تدنو منا رويدا رويدا .

التوتر يزداد تدريجيا كلما تدلى فوقنا السقف.. يجتاحنا فى ثقة وفى صمت ، بينما قلوبنا تدق بعنف.. تدوى فى أعماقنا طبولها العالية .

خلال هذه الشهور كان بحثى عن سكن آخر يجرى على قدم

وساق ، على الرغم من عدم اقتناعى تماما بهذا السعى، فهو غير منطقى بالمرة ، وربما لأنى أومن كما تعودت بأن الله لن يخذلنى أبدا وسوف يمد لى يد العون فى الوقت المناسب .

هكذا عودنى الله فى ملماتى السابقة ، فلطالما تعرضت للأذى وعمليات النصب ، ولكن الله كان دائما معى ولو فى آخر لحظة .

كنت أعلم أن بدايتى ونهايتى فى دارى، وأن حياتى وموتى فيها.. ولأنه ليس من السهل التخلى عنها لأبسط الأسباب ولا حتى لأعقد الأسباب .

قررت إقامة كوخ خشبى كبير فى نصف الحديقة الأيسر . أخذنا نضع فيه كل ما يحين أجله من الأثاث ، لا بمعنى قدمه وتهدمه . ولكن كلما حملته الجدران إلينا .

أحلت الثريات إلى المعاش ، لأنها تدلت وأصبحنا نصطدم بها ، وكل ما نصطدم به نخلعه .

صورة جدى التى كانت تعلونى بمتر على الأقل، أصبحت أمامى، وغدت عيناه فى عينى، ونظراته تندس فى نظراتى، تكاد تلومنى، وشاربه المنتصب فى إباء يحتقرنى، فأتضاءل وأخبىء نظراتى تحت أهدابى المنكسة .

رفعت صورة جدى، وقد رأيت نوسة الشقية ، ترميها بحصانها

الجلدى. توشك أن تسقطها .

لحقت بها الساعة الأثرية الكبيرة، وكانت هدية من الوالى التركى لجدى، إثر اشتراكه فى معركة حربية بمنطقة القرم السوفيتية، وهو ابن جدى الأكبر الذى اشترك فى رد الفرنسيين والثورة عليهم ومات إبان هذا الاحتلال .

جاء دور معلقة اخناتون . وهى قصيدة بعنوان .

إلى صديقى الموهوب (بيك)

كانت قد نشرت بالعربية فى جريدة العروة الوثقى نقلا عن الفرنسية، ثم كتبها خطاط عربى بماء الذهب وأهداها لجدى الذى كان يلازم الشيخ محمد عبده .

قصيدة رائعة .

كنت أقرأها تقريبا كل يوم .. لا أدرى ما هذا السحر الذى أجده فيها كل مرة .

يقول اخناتون فى قصيدته إلى صديقه الرسام «بيك»

«أيها الفنان الثائر ، العبقرى الجرىء

أعرف أننى دفعتك فى ذلك الطريق الأصيل الصعب

لأننى جربت معدنك الطيب القوى

وما كنت تجرؤ على أن تتهور وتطيع

فما أكثر الذين يعرفون الصواب ويتجنبونه

لولا إيمانك العميق بأن الحقيقة أفضل وأكثر جمالا !

وصورتنى مع عائلتى .. وبين أهلى وأولادى

فأضفت علينا سحر الحقيقة بعظمتها

وكانوا جميعا – البنات – على صورتى

وكان الملوك يخشون الظهور

مع أبنائهم وبناتهم وزوجاتهم

خصوصا وهم عرايا متجردين – إلا من الحقيقة

لقد اخترتك يا بيك يوم رسمت أبى

فى الصورة التى أثارت غضبه

حين تقدم به العمر فبدا شيخا مهرما

جلده متغض وجفونه متدلية إلى الأمام

فطردك وأسلمك للجوع والتشرد .. وما كنت لتعيش

لو لم يسبغ عليك آتون حمايته

فوقفت معك ، لأنك وقفت فى جانب تقف فيه الحقيقة

والحقيقة دائما أفضل وأكثر جمالا !

. . .

ولما ذهب أبى إلى رع . عدت إلى طيبة وإلى أخناتون

حيث طلبت منك رسم كل ما تراهَ

ارسم كما تشاء وكيف تشاء

ارسم الحقيقة بلا تزويق ولا كذب ولا مجاملات

فصورتنى وأنا أقبل أولادى

وأتحسس حلمتى ثدى أختى وزوجتى

فهذه كانت الحقيقة

وهل تخفى الحقيقة على الناس

لاتأسف على ما أصابك

فإذا كانت بعض عصابات المتجرين بآمون

حاولت أن تجعلك تجوع

وأن تسخر منك

فقد كنت أول الفنانين الصادقين

الذين يفضلون الحقيقة على ما عداها

فإذا صلبوك أو قتلوك فيكفيك أنك عشت الحقيقة

والحقيقة دائما أفضل .. وأكثر جمالا .. !

طويت لوحة القصيد وحملناها فى صندوق إلى الكوخ .

* * *

نقلنا صوان الفضيات المصنوع من الأبنوس . لكم حرصنا على

ضلفاته البللورية وأوانيه المنقوشة بالزهور الملونة تحيط بصورة جميلة ودقيقة لنابليون الثالث.

ها هى الملاعق الفضية لم ينقص منها إلا أقل القليل، ومازالت رغم عشرات السنين تبدو زاهية، وإذا أزلت عنها طبقة الأتربة، تجلت بكل حسن عربة رمسيس الحربية وهو فوقها يقودها فى شموخ.

بعد العمر الطويل، وبعد المجد والعزة نزعت كل الأوسمة التى تزين دارى وألقيت بها فى الكوخ . تحولت معانى الإباء والشمم إلى رموز للضعة والضياع .. إلى مهملات مكانها الكوخ أو العراء.

هدمت «السندرة» التى كنت قد بنيتها فوق الحمام كمخزن، وأنزلت الدش أيضا . غدوت أستحم باستخدام الخرطوم، أو صب الماء على جسمى بكوز من الصفيح .

خلعت اللمبات الكهربائية لأنها دنت جدا منا، ونزعت عداد الكهرباء وسلمته للمؤسسة، وكان حتما أن أعود إلى مصباح الكيروسين.

أما بالنسبة لعملى فقد كنت أذهب إليه بلا انقطاع، ولكنى للأسف لم أقدم له ذرة من عقلى، ولا دقيقة كاملة من انتباهى وتركيزى.

أجلس بين الزملاء صورة، أرد عليهم وأسألهم وأجيبهم، ولكنى كالنائم أو السكران، ولم يعد أحد منهم يسألنى عن دارى، فقد

أصبح أمرها معروفا للجميع، وسخروا منى ومنها بما فيه الكفاية، حتى استنفدوا فى مجالها كل قدراتهم على الضحك والاضحاك، وهى قدرات عالمية خارقة.

بمرور الوقت أصبح الأمر لا يعنيهم فى شىء .. وهذا هو حالهم فى كل ما يواجههم من مشكلات أو أحداث.

هم فى البداية وعند سماع الخبر الحزين، يبكون إلى درجة الانتحار، ثم تنبثق فيهم حالة عكسية تماما فيضحكون لدرجة البكاء ويسكرون على «حس» هذا الحدث لفترة.. حتى تتعادل النسبتان.. الضحك والبكاء.. الحزن والرضا .. ولا يعود هناك فى نفوسهم أى أثر لهذا الموضوع فينسونه تماما، ويتمددون فى استرخاء حتى يدهمهم حدث آخر.

هم إما ضاحكون وإما باكون، والأشياء الموجودة بالنسبة لهم هى التى يضحكون عليها أو يبكون منها. وما لم يفجر ضحكهم أو بكاءهم فهو غير موجود، بل هو العدم ذاته حتى لو كان إنسانا وافر الانسانية.

* * *

توالى هبوط السقف وأنا المسحوق لا أجد مذاقا لطعام ولا مساغا لنوم ولا طعما لراحة.

شكوت لطوب الأرض.

تظلمت لكل من أعرف ومن لا أعرف من المسئولين.. تحدثت فى المقاهى والمساجد والكنائس .

كتبت للصحف.. أملا أن أجد فيها منفذا لاحقاق الحق.. والحق هو مساندتى وإعانتى فيما أنا فيه .

الصحف باب من أبواب العدل.

بعضها نشر الخبر فى سطرين لا يقرأن، وبعضها لم يحفل بالأمر، فماذا يضير العالم إذا هبط سقف أحد المنازل ؟

ولو هبط وهبط حتى يأتى يوم ينسحق فيه أهله .

فى نظرهم لا ضير أن تشتعل دارك أو تهدم.. وإذا حدث فالرد .

– وماذا فى هذا.. لماذا لا تبحث عن غيرها.. بلاد الله واسعة.

جاهلا كنت أحسبهم سيكتبون عنها – على الأقل – لأنها تمثل ظاهرة معمارية غير عادية.

كان من الممكن أن يتعرضوا لها بالتحليل بعد استشارة المختصين من أساتذة الهندسة وخبراء الجيولوجيا.

يبدو أننى أسأت اختيار الموعد الذى بعثت فيه الخبر إلى الجريدة. يجب أن ألتمس العذر لها ، فربما كانت مشغولة بحملاتها الصحفية المثيرة.

صاحب الحاجة دائما لحوح ، يعتقد أن الكون كله يجب أن يتوقف لسماع شكواه. لذلك آثرت أن أتكفن بالصمت . أنصت لبضع يمامات سوداء سكنت القلب والأجفان، فإذا جن الليل وهبط قاربنا فى بحيرة المساء شرعت تعزف لحنها الوحيد .

* * *

حملت بمساعدة الزوجة المخلصة والأولاد كل ما بقى من الأثاث الخشبى إلى الكوخ .. مكتبى ومنضدة الطعام وأثاث المطبخ والدولاب والسرير والتليفزيون والأنتريه وكراسى الصالون.. جميع الأشياء حتى أصص الزهر ، ولم نبق غير عدة سجاجيد ووسائد للنوم، وموقد الغاز وبعض الآنية .

مضى السقف فى طريقه لا يلوى على شىء ..

عقد العزم على الهبوط ، لم يبال بشكواى ، فهو رغم التظلمات يضغط ويضغط ، والجدران أيضا لا تأبه بحالى فهى تغوص وتغوص.

وكما كنت وأنا صغير أرقب عقرب الساعة الكبير وهو يتنقل بين أرقام الساعة، أصبحت أقضى كل وقتى بالبيت فى مراقبة السقف، وإخال نفسى رأيته مرة وهو يهبط ، لكن نسبة الهبوط تجعل من غير المنطقى رؤيته.

يهبط السقف نصف سنتيمتر كل أربع وعشرين ساعة، أى مليمتر كل خمس ساعات، أى عشر مليمتر كل نصف ساعة.. أمر صعب التصديق.

ليست الرؤية هى المستحيلة ولكن مجرد التحديق لمدة نصف ساعة كاملة ليراقب الانسان الحركة داخل عشر مليمتر لا يتأتى لبشر القدرة عليه.

لكنى أصدق نفسى.. نعم أصدق نفسى إذا قلت أنى شاهدت السقف وهو يهبط .. نعم رأيته لأن عينى ليست كعيون الآخرين، وحالى ليس كحالهم وقلقى أضعاف قلقهم، ومصيرى على كف الرحمن، ولا أقول على كف عفريت .

فى إحدى الليالى الصافية الحزينة الوحيدة التائهة مثلنا ، تنبهت إلى أن السقف يمارس هوايته فى الهبوط .. سمعت خشخشته فى أعلى الجدران، ورأيت الهبوط جليا مع العلامات المتدرجة التى قمت بتسجيلها كل نصف متر من السقف حتى الأرض ، بالضبط كما فعل المهندس وهو يتابع الظاهرة ، وزدت عليه بأن أعطيت العلامات أرقاما ليسهل حساب ما فات وما بقى من السنتيمترات والأيام .

ظل الهبوط دقيقا ومنتظما وبمعدل ثابت لا يختل يوما .

أتوجه كل صباح إلى مواضع الترقيم الثلاثة، أبحلق فى الرقم

وأتمنى أن أفـاجـأ فى كل مـرة بأن الرقم الســابق مـا يزال واضـحـا للعين، لكنى لا أجده فى اليوم التالى، ويغدو الرقم الجديد هو الأول فى القائمة.

نظام يطرد بلا تخلف.. والخـوف كل يوم يزداد ويتـمـدد فى نفوسنا.

الهم يحتل مساحات جديدة، والحيرة والضياع يستوليان علينا، يوجهان سلوكنا.

يفقدانا كل متعة، يخطفان كل بسمة.. يمتصان كل أمل.

تمضى الأيام

وكلما قبعت صامتا فى سفح السكون

أرنو بشوق للحياة

نبتت فجأة أشواك الخوف فى وديان الأمل

وانبثقت فى عروقى دماء الفزع

فأرتد وأرتد

أرتد وأرتد .. إلى أن يلتصق بالجدار

يلتصق بالجدار ظهرى العارى

وأتضاءل

وأتحلل

وأهبط

وأذوب

وأصبح على الأرض مجرد بقعة.

* * *

رابعا

أعمدة الحديد

« من ذا الذى يحب أن يعيش بغير عزاء الأشجار ..

هانحن نستمع إلى خرير الزمن تحت أقواس الجسور

إنه يحسب نصيبه من الأبد فى هدوء

المسافات التى يقطعها

ترى على أوراق الشجر كالقهر المظلم

حركة الأجنحة تلون الثمار

معنى هذا أن تتعلم الصبر

قريبا

تنزع الأختام عن كتابة الطيور »

جنترآيش

ذهبت بعد مرور نحو عام وللمرة العاشرة إلى مجلس المدينة.

يعرفوننى

يسخرون منى كلما رأونى، لأنى سأحكى قصة معادة.

بالرغم من سخريتهم يرحبون بى فى البداية لأقص عليهم ما جد، وإذا لم يكن هناك جديد، فيكفيهم أن يتذكروا شيئا مضحكا بمناسبة حضورى، يخفف من رتابة العمل، ويخلع عنهم خيمة الملل، فتطل عليهم نسائم البسمة.

قال لى أحدهم مرة : أنت مقرر علينا هذا العام.

وقال آخر : أجره لنا نقضى به الأمسيات إلى أن يحين أجله.

وعلق ثالث : لا نريد به أثاثا ولا نوافذ .

قال رابع : لن يعوقنا هذا السقف اللعين عن التحليق بعيدا عن الأرض.

كان فى قمة غضبه لحظة دخولى ، ولم يشأ أن يعلق بكلمة، ولم يكن يرد على أحد، وكان الجميع يتحاشونه إذا بدا أنه على وشك الانفجار .. إلى أن قال فجأة دون أن أسأله أو أقترب منه :

- متى يا سيدى يبلغ بيتك هذا عاليه واطيه كى نرتاح منك ومنه .

إلى هذه الدرجة أسبب للناس الضيق ، وكنت قبل ذلك مصدر سخريتهم ..

لم أدر لماذا لم أغضب لثورة الأخير بقدر ما تألمت من وخز الاستهزاء الذى توالى قبل ذلك دون اعتبار لحالتى .

تنهدت وحملت نفسى حملا على الرحيل ، دون أن أسأل عن الحل

.

اصطدم بى عند الباب مهندس طيب تعرفت به من قبل ، عهدت فيه الاستقامة والهدوء ، قال :

– لقد ظهرت أخيرا .. تعال .. أريدك .

جرنى من ذراعى إلى مكتبه . أجلسنى على الكرسى. ضرب الجرس. أشرت إليه بالرفض .

قال :

– أمن المعقول أن يحدث هذا فجأة . لابد أن تكون علامة ما ظهرت وأنت أهملتها ؟

أقسمت له أن أول علم لى بهذا الموضوع هو ليلة الانفجارات.

تنهد ومصمص شفتيه فى حيرة.

– والآن وبعد مرور العام المسموح لك للاقامة بالمنزل كيف ترى الحياة فيه ؟

- ماذا أقول ؟

- هل أنت راض ؟

- عن أى شىء ؟

- عن حالة المنزل.. منزل الانسان وعمله أهم ما فى حياته .

- وكيف أرضى ؟ وإذا لم أرض.. ما هو الحل ؟

- أمر الله

- أمر الله ..

نهضت لأغادر المكان.. بقى شاردا فى مكانه، تحركت. خرجت.. سمعته ينادى .

- يا أستاذ .. يا أستاذ .

دون أن يذكر اسمى عرفت أنه يقصدنى. توقفت. لم ألتفت إليه. لحق بى. دار حولى.. واجهنى .

- كنت أود أن أسأل.. ماذا فعلت بالأبواب ؟

- أتبغى شراءها ؟

- لا .. كل ما هنالك أننى أريد أن أطمئن على تصرفك إزاء هذه الحالة .

عجبت .

أوقفنى ليسألنى عن الأبواب ..

- خلعتها وألقيتها بالحديقة .

- لا .. أقصد الفتحات.. أقصد كيف تدخل دارك .

إن مرور عام معناه أن فتحات الأبواب كلها تقريبا تحت الأرض الآن.

- فهمت.. نعم.. نعم.. لقد هبطت تحت الأرض، ولم يعد هناك غير متر واحد منها في الباب الخارجي.. أقصد كفتحة للخروج ونحو نصف متر ننفذ منها إلى كل حجرة. وعن قريب ستنسد في وجوهنا السبل .

- إذن عليك باستكمال الفتحات إلى السقف، لتطول مدة بقائك بالمنزل - على الأقل - نصف عام آخر حتى تجد شقة أو تسلمك وزارة الاسكان منزلا .

- شكرا ..

- أرجوك أن تمر على بعد أيام لأنى على وشك أن أخبرك بأمر جديد .

مضيت فى سبيلى لتنفيذ فكرته التى مدت فى عمرى بضع شهور.

ارتفع العمال بالفتحات نحو متر، وأمكن أن يتاح لنا الدخول.. بعد ثنى الرأس فقط . وهو أمر أفضل كثيرا من ذى قبل .

بعد أيام ذهبت إلى مجلس المدينة. استقبلنى المهندس الطيب باهتمام..

مضى بى إلى حجرة مجاورة ليست للمهندسين، كانت شاغرة من

العاملين بها .

– هنا نستطيع التحدث براحتنا .

– تفضل .

– فكرت كثيرا فى بيتك إلى أن أمكننى الوصول إلى فكرة جديدة أو طريقة مبتكرة لتحل الموضوع .

طرت من الفرح. حلقت .. هناك إذن من يفكر فى بيتى، وهناك من يقلق ولو من قبيل إزجاء وقت الفراغ .

– هات بالله عليك .

– ما دامت الأرض ثابتة كما قال المهندسون الذين زاروا البيت ، فإنى أرى أنه بالامكان تثبيت أعمدة حديدية ضخمة فى كل غرفة ، تقف حائلا دون هبوط السقف عليكم .

– أعمدة حديدية.

– نعم.. تشبه تلك التى ترفع السيارات فى محطات البنزين .

رفرف فى صدرى الأمل البراق :

– فعلا .. فعلا .. يبدو الأمر ممكنا .. نعم إنه حل رائع .

– على ثقة أنا من ذلك .

– لكن كيف يتم هذا وما هو دوركم ؟

– آه.. هنا السؤال الذى لم أسأله للمدير .. انتظرنى.

غاب عنى ثم آب .

– رفض المدير .

– ما هى حجته ؟

– قال إن ميزانية الدولة لم تخصص للإنفاق على منازل الأفراد وإنما على المشروعات العامة .

وجمت وشردت ..

– إذن الاشراف الفنى .

– فعلا .. أعتقد أن هذا بالامكان، ومع ذلك علينا أن نستطلع رأى المدير .

– ألابد أن ترجع اليه فى كل الأمور؟.

– كلها .. لا تقلق .

غاب عنى ثم آب متهدل الكتفين، منكس الرأس.. تلقفته.

– ماذا جرى ؟

– رفض المدير .

– ألا يوافق على أى شىء ؟

– يقول إنها تحتاج إلى مذكرة منك وبتقرير جديد عن الفكرة، يعرضان على الاجتماع الشهرى لمجلس المدينة ثم على لجنة وزارية عليا .

- وماذا فى هذا ؟

- اجراءات سخيفة ومطولة .

- راض أنا يا سيدى .. المهم أن نبدأ .

مضى الأمر متهاديا متبخترا، يمر شهر فينتقل الموضوع خطوة، ويمر شهر فينتقل خطوة أخرى .

أخيرا وافقوا واشتريت الحديد، ودكوه فى الأرض.. امتد ارتفاعه حتى بلغ السقف مترين .

مضت أيام خلت فيها أن السقف قد توقف، وحدثتنى نفسى أن الحديد إذا كان قد استطاع أن يحتجز السقف ويمنعه من الهبوط عدة أيام، فربما تمكن من منعه إلى الأبد .

فى اهتمام مضيت أراقب الحديد والسقف.. يحدونى أمل كبير، إلى أن كانت ليلة، سمعت خشخشة.. أصخت السمع، مددت أذنى فى بطن الصمت ..

تبين لى أن اسطوانات الحديد الضخمة التى يصل قطرها إلى ٢٥ سنتيمتر بدأت تغوص، وأن السقف اللعين قد دكها فى الأرض دكا .

أصر على هبوطه فى جبروت، غير عابىء بشىء ..

مضى يتجه إلى صدورنا فى إلحاح..

رفض الحديد كأنه جسم غريب فى البيت، بل وخلت أنه من قبيل

التحدى قد زاد معدل هبوطه .

توالى نقص الفـراغ المتـاح لنا ، ولـم يعـد بإمكانى الدخـول إلا منحنيا جدا .

كلنا ندخل الحجرات زاحفين على أربع، كأننا نجتاز أبواب القبور أو كأننا نهبط إلى خنادق .

كل حـركـتنا داخل الدار هى انحناء فى انحناء، ويزداد الانحناء كل يوم انحناء .

نهبط كلمـا ضـغط السقف وهبط ، ننطوى ونلتوى كأن دارنا هـى بطن أمنا، ونحن قـد عـدنا أجنة لا نتنفس إلا بقـدر ولا نتـحـرك الا بقدر.

فمتى يحين يومنا فنرى النور كخلق الله !

متى نخرج من هذا القمقم إلى الحياة !

* * *

كـتبت إلى الصـحف من جديد وأعـدت الكتـابة لأنى أعـتـقد أنهـا يمكن أن تعبر عن مصيبتى بشكل أو بآخر.

أرسلت لـى إحـدى الصـحف فى أحـد الأيام مـصـورا ومـحـررا .. سـألنى وأجبته.

صورنى المصور وأنا أنحنى، وصور الأولاد وهـم ينحنون.

صورنا ونحن نصعد درجات السلم ثم ننحنى واحدا فى إثر واحد لندخل كالفئران، أو كأننا مجموعة من السائحين فى زيارة لقبر ملك فرعونى شهير .

حدثنى المندوب عن الروبرتاج الذى سيهز ويؤثر ويشد .

– سنضع هنا صورتك وهنا صورة المدام .. أما هنا فعنوان بارز ، وهنا عنوان فرعى، وهنا سهم يشير إلى المنزل وهو فى نصف حجمه.. ما رأيك أن يكون عنوان الموضوع «أغيثونا.. المنزل يغوص».

مضت الأيام ولم ينشر شىء .. أى شىء .

عاتبت نفسى وعجبت لأمرى وتساءلت :

– لماذا أفتح صدرى لرجال الصحافة ؟

وأجابتنى نفسى :

– لكى ينشروا حالتى .

سألتها :

– وهل الناس بحاجة إلى أن يعرفوا حالتى وحكايتى. لقد بلغت القاصى والدانى حتى كبار المسئولين، والادعاء بعدم معرفتها مصيبة كبرى .. كبرى .

زرت بيوتا كثيرة، كل السقوف فى مكانها مرفوعة والأولاد تقفز وتلعب ، تصعد وتهبط كما تشاء .

أما نحن .. فمن دون الخلق أجمعين تعساء الحظ ، سقفنا يوالى الهبوط .

رأينا الناس تصعد إلى اللمبات المتدلية بالكرسى أو المنضدة ، ورأينا آخرين يضعون الكرسى فوق الكرسى أو يستخدمون السلم ليسحبوا كتابا من أعلى المكتبة .

رأينا آخرين يعلقون اللوحات والثريات .. رأيناهم جميعا يعيشون حياة طبيعية .. أما نحن .. أما نحن .. !

لم نعد نزور أحدا ولا نتيح لأحد فرصة زيارتنا ولكننا - بالرغم منا - أصبحنا عرضة لهواة الفرجة الذين يفدون إلينا لمشاهدة دارنا العجيبة .

حياة مخنوقة وقصيرة وقعيدة، لا أجلس ككل البشر مرفوع الرأس، وإنما «أتقرفص» وانطوى كالبردان وأقبع فى أحد الأركان، كأنى أتقى المطر .

معظم الوقت نائم مهدد، لا أفكر إلا فى السقف .

طردتهم جميعا، هؤلاء الرجال الذين جاءوا يطردوننى من دارى، تنفيذا لأمر مجلس المدينة باخلاء المنزل خوفا على حياتى .

قلت لهم :

- أننى أحرص على حياتى منكم.. لن أتركه إلا جثة .

لم يستطيعوا اقتحامه علينا، قاومناهم بشدة .. اعتصمنا بداخله ، ولم يكن بداخله غيرنا .. كل مالنا نقلناه إلى الكوخ .

لم تخفنا تهديداتهم.. لكنهم بعد أيام عادوا بقوة عسكرية. لم نخرج إليهم ولم نستجب لندائهم.. وضعنا الوسائد سدا فى حلق الباب ..

لم يجدوا سبيلا إلينا .

ألقوا علينا من فتحة صغيرة هى الباقى من نافذة المطبخ المطلة على الحديقة قنبلة مسيلة للدموع .

أسرعنا إلى الغرف البعيدة، زحفنا إلى داخلها ووضعنا الوسائد على الفتحة التى دخلنا منها فلم تبلغنا قنابلهم ..

ملوا وذهبوا .

قالت نوسة :

– لقد ذهبوا يا أبى .

قلت :

– مساكين .. لا ذنب لهم .

عدنا إلى حياتنا الغريبة التى لم تعد أبدا غريبة. من طول معاشرتنا لها تعودناها. لكنها كانت فى قلوبنا مرفوضة .. مرفوضة تماما .

لاح لى خاطر وأنا ممدد .

ألا يكون ما حاق بنا غضبا ربانيا لأن زوجتى وأولادى لا يصلون؟

هم حقا طيبون وعلى خلق رفيع، فأنا أحاسبهم على الصغيرة قبل الكبيرة حتى لا يصيبوا أحدا بسوء . لكنهم لا يؤدون فرض الله.

فهل يا ترى ، ما جرى .. كان عقابا لنا ؟

تساءلت :

– غيرهم كثيرون لا يصلون، فلماذا لا يعاقبهم الله؟.

وأجبت نفسى على قدر علمى وإيمانى .

– ربما يعاقب الله الجميع فى شخصنا ، ليس من المعقول أن يعاقب الجميع .

أنه لطيف.. غفور رحيم .

إذن ليصلى الأولاد وتصلى أيضا أمهم، ربما يرفع الله مقته وغضبه عنا.

رأيت مرة فيما يرى النائم أننا كنا ننام على الأرض بعضنا إلى جوار بعض والسقف من فوقنا، والريح الباردة فى الشتاء «تقرص» جلودنا بلا رحمة بعد أن تفلت من الفرج.

كان كل منا يحتضن الآخر طلبا للدفء .

أرعدت السماء وانهمر المطر .. غرق السقف وذاب .

نزلت قطراته فى أفواهنا .. ملحا .. ملحا.

كأن السقف من الملح .

امتلأنا بقطرات الملح المتساقطة.. غدت عروقنا مرارة وحلوقنا مرارة، صدورنا مرارة وظهورنا مرارة.. غدونا المرارة.

استأجرت عمالا وزدت فتحة الأبواب إلى السقف .

أمرت الأولاد بالصلاة ، فاستجابوا كأنهم كانوا ينتظرون كلمتى. أيقنت باستجابتهم أنهم مثلى قلقون يبحثون عن الحل .

تأكدت أنى لا أفكر فى الدار وحدى وإنما يشاركنى الأولاد بما فيهم نوسة الشقية .

أصابها ما أصابنا من الكآبة، وغلب عليها ما غلب علينا من الخمود، وهى فى سن الطفولة والصبا وانطلاق الطيور .

أصبحت تنام كثيرا، ثم تشرب الماء وتبول، ثم تنام وتبول .

أصبحنا نصلى جميعا فى الحديقة لأن السقف لا يسمح لنا بالصلاة ونحن وقوف .

فضلت أنا الصلاة فى المسجد لأستمتع بقرب الله فى بيت الله، ولأستمتع بالنظر إلى السقف البعيد ، والقبة المرتفعة ارتفاع السماء، وأتنهد بعمق .

السقف البعيد . ما أجمله وما أبهاه. وما أروع أن نكون بلا سقف ، ولا يكون ثمة غطاء إلا السماء ولا من وجه إلا وجه الله .

أعود من المسجد لأتكور وأتجمع وأتداخل وأنثنى وأنحنى وأنفذ من الباب، كأنى أختبىء فى حظيرة دواجن .

أنبطح على الأرض لأتناول طعامى أو أنام. أرنو للسقف كأنى أرجوه أن يمهلنى حتى آكل أو أنام قليلا.

نلوذ بالصمت فلا حديث بيننا، وماذا يمكن أن تقول زوجتى لى ؟

هل تحدثنى عن الثوب الجديد ؟

هل أحدثها عن الترقية التى نلتها أو العلاوة التى زاد بها راتبى ؟ أم ترانى محدثها عن مباراة الكرة أو عن رأى الكاتب الفلانى فى الموضوع العلانى ؟

هل أقول لها إن مشكلة فيتنام أوشكت على الانتهاء وسيتم قريبا الصلح بين الأطراف؟.

هل أقول لها إن مندلسون برغم طول استماعى إليه لم أتذوقه مثل شوبان؟

وهل تراها محدثتى عن جودة التمثيلية التى يتابعها الناس فى التليفزيون؟ ويقولون إنها توقفت بالأمس عند مشهد مثير .

وماذا يقول الأولاد ؟

لا شيء .. لا شيء على الاطلاق..

وإذا حدث أن مل أحدنا الصمت ونطق ببعض الكلمات، تناثرت فوق آذاننا الكلمات بلا معنى.. بلا مبرر.. بلا طعم .

إذا جاء وقت الطعام أكلنا كأننا سكارى.. أكلنا كأننا نأكل من قبيل الخسارة أو مضيعة للوقت. وقد نأكل كمن هو أحوج للنوم بعد سهر طويل، نلوك الطعام فى أفواهنا بالحركة البطيئة كالماشية التى تجتر طعامها فى الظل.

وإذا جاء موعد النوم، وتعين علينا أن ننام.. لا ننام .

فكيف يمس منا العيون ولحظات الأمن القلقة تحترق لحظة بعد لحظة.

من يدربنا ؟

قد يتخلى السقف عن انتظامه ويسقط فوقنا

يسحقنا ويهشم عظامنا

ومهما قاومنا بحب الحياة الكامن فينا

لا نستطيع

.. .. ..

لا نستطيع

خامسا

المحاولة قبل الأخيرة

بعض الناس يمضى فى سبيله ، وبعضهم يتمهل

بعض الناس حر وبعضهم مقيد

أما قدماى فواهنتان من عبء قلبى

لذا

أمكث هادئا فى الظل ،،

طاغور

أصبح الصباح فى أحد الأيام، فإذا صهرى الذى يعمل أستاذا للعمارة بجامعة كاليفورنيا قد وصل .

وقف ينادى حين لم يجد بابا يدقه ،

راعه ما رأى . سمع القصة .

من فوره قام بدراسة الأرض والجدران المتبقية والسقف الجاثم .

اطلع على كل التقارير والمذكرات

علم عن الدار كل صغيرة وكبيرة. حزن أشد الحزن.. أثرت فيه حالتنا، نحن آخر فرع فى شجرة العائلة العريقة وهو منها، لأن زوجتى ابنة عمتى.

شرد . وجم .. ثم قال فجأة :

– مازال هناك حل

أعرف أنه يفهم أكثر من اخواننا مهندسى مجلس المدينة..

استطرد – يقولون عنى فى أمريكا أننى خليفة فرانك رايت.. هل تعرفه ؟

– لا

– الحل هو هدم السقف وإعادة بناء البيت .

لم تخطر الفكرة ببال أحد من مهندسى المدينة.. نبتت السكينة فى قلبى بعد أن كان الحزن قد ترسب وتراكم، ثم تخمر وتعتق. فصار طعما لكل طعم، ومذاقا لكل مذاق.

بت الليل أُمنيِّ النفس بقرب انقشاع الغمة.

اتفقت فى الصباح مع أكبر مقاولى الهدم المعروفين بامكانياتهم وخبرتهم.

لقد آن الأوان كى نعيش كما ينبغى.

سيتم الهدم، وبعد أسبوعين نبدأ فى بناء البيت الجديد .

بيت له طعم خاص ويتميز عن كل بيوت الدنيا . لأننا سنفصله على قدنا. ونطمئن على كل لبنة فيه .

وصل فريق الهدم بآلاته الخفيفة والثقيلة، الكهربائية والأتوماتيكية، وكذلك العمال. بدأ الدق على الفور فى عدة مواضع.

لم تصلح الفؤوس وتطايرت أكفها الحديدية.

استخدموا آلات الحفر الصغيرة ثم الكهربائية، جهودهم ذهبت أدراج الرياح.

لم يتأثر السقف ولم يهتم، لم تحدث فيه ندبة، كأنهم كانوا يستخدمون الإبر فى هدم الهرم الأكبر .

بعد عدة محاولات وتجارب. بعد تخمينات وظنون توقف العمل.

أعلن المهندس المشرف على الهدم لحساب المقاول أن هذا السقف من المستحيل هدمه، وهذه الجدران من الصعب تكسيرها.

أهلت على صهرى النظرات المستفسرة.. وهو يبدو مصفر الوجه، ينفث الدخان من غليونه.. سألته : والحل !؟

تنهد وقال : الانتظار

فى فزع قلت : إلى متى ؟

قال : إلى أن يكمل نزوله.. السقف مستمر فى الهبوط، ولم يبق غير متر واحد، فاصبر، وبعد أن يهبط تماما، يصبح بمثابة أرضية صلبة تستطيع أن تبنى فوقها وأنت مطمئن ودون قواعد.

تدخل مهندس المقاول.

- فعلا أنا مع الأستاذ .. علينا الانتظار.. فات الكثير .

- وأين أعيش أنا والأولاد؟.

- فى الحديقة. فى المسجد . عند الجيران، فى أى مكان، اصبر ولا داعى لأن تضيع مالك وصحتك ووقتك فى هدم السقف. دعه وسيأتى يوم يختفى فيه. أفضل ما فى المشكلة أنك تعرف متى تنتهى.

.. ..

الصبر من عندك يارب

ولو أن حياتى كلها صبر فى صبر. لكن الصبر مطلوب منا مرة أخرى.. نصبر، وعندما ينتهى الصبر ولم نبلغ أمانينا..

نبدأ فى العد من جديد.. صبر وصبر.. وصبر.

كل مالنا الآن.. فى الحديقة والكوخ، كل وقتنا هناك. كل نومنا هناك. لم يعد لنا فى البيت قشة . تركناه للعناكب تفرش فيه الخيمات.

تركناه للخفافيش تمرح فيه وتختبىء من فضول النور.

لم يعد يربطنا بالحياة غير الأمل فى أن ينتهى الهبوط ، أن ينزاح الهم. أن يكتمل هبوط الجدران، لنستطيع أن نبنى دارا جديدة مادمنا لا نستطيع أن نحسم المسألة ونهدم السقف.

مضت الأيام وأنا أتابع السقف دون أن أكل أو أغفل، لم أكن بالطبع أستطيع الدخول ومراقبة السقف من الداخل، لكنى كنت أرقبه من الخارج.

أحضرت شريحة من الخشب طولها نحو متر وزرعتها فى الأرض بموازاة الجدران. سجلت عليها نفس العلامات المتدرجة.

فى كل صباح أقارن بواسطة مسطرة، مستوى السقف بمستوى العلامات المرقمة .

ما زال أمامنا نحو خمسة وثلاثون سنتيمترا، أى نحو سبعين يوما.

أعد صهرى التصميمات للمنزل الجديد.. تصميمات رائعة لدار عظيمة. أسعدتنى أفكاره. شحنتنى بأمل جديد. بنشوة. بسعادة غامرة.

راجعها عشرات المرات واتفق مع المقاول على التنفيذ وأبدى استعداده للمعاونة فى التكاليف.

نحن الآن فى انتظار هبوط السقف العنيد، سيصل بسلامة الله إلى الأرض بعد شهرين.

سينتهى أجله ليبدأ عهد جديد وبناء جديد، وتعود أنفاس الحياة لتتردد فى الصدور .

حلمت ليلة أنى أنام فى ظل شجرة ضخمة، سماؤها من الفروع الخضراء لا من كمر الحديد، تروح وتجيىء بينها دوائر الضوء ، أما ما يجف من الأوراق فتذروه الريح.

صحوت.

كان الوهم يدس فى صدرى السيف. وكان الكذب فى صورة حلم.

فى أحد الأيام لاحظت أن علامة اليوم هى علامة الأمس فدهشت، ثم تراجعت عن دهشتى ، فلا شك أن عينى أصابها مرض أو ضعف.

لم يحدث مطلقا منذ بدأ السقف ضغطه على الجدران أن توقف عن الهبوط.

راجعت المسطرة والعلامات عدة مرات والنتيجة واحدة، النتيجة..

أن عينى سليمة وبصرى حديد.

السقف لم يهبط اليوم، ولم يهبط فى اليوم الثانى ولا الثالث.. غريبة.. ولم يهبط فى الرابع والخامس والأيام التالية..

انحنيت وقرعت رأسى فى السقف الجبان من الغيظ والغضب.

تحولت أرقص فى جنون وأولول كالنائحات.

بعد كل هذا الصبر.

فان «سعادة البك» السقف.. لن يصل إلى الأرض فى موعده المقرر !!

لن ينزاح عن كاهلنا عبؤه كما اتفقنا . لقد أخلف وعده. آثر البقاء معلقا على أن يحقق لنا رغبة .

ما زال هناك ثلاثون سنتيمترا أو أقل، ماذا أفعل بها ؟

حاولت أن ابتسم.. لم أستطع التحكم فى شفتى.. بقيا ممتعضتين . .

تنهدت

حدقت فى مياه النيل كأنى أسألها عن حظى .. ألفيت النهر تجمد وتحجرت أمواجه، وما عاد ماؤه يصلح للشراب ولا للصيد ولا للإبحار

بنها فى صيف ١٩٧٨

الناب الأزرق

(١)

مسرعا صعد درجات السلم، كان يحس بالجوع. دفع الباب. توجهت عيناه إلى موضع أمه المعهود .

ألفاها كعادتها ممددة، تشغل بجسدها العريض نحو نصف الردهة. وأخوه فوقها يعب من ثديها الكبير .

سال لعابه فارتمى إلى جواره. أخذ الثدى الأيسر بين راحتيه فلم يحط به . سرى فى جسده دفء الثدى الخصيب. أحس بالمتعة والامتلاء قبل أن يطبق على الحلمة .

أراح رأسه على صدرها السمين . دار بجذعه الأسفل حول خصرها . مضى يرتشف طعامه اللذيذ .

أسندت الأم رأسها إلى جدار، وتركت جسدها الطويل العريض واديا يرعى فيه ولداها .

بلغ أحمد ست سنوات وما زال يعيش على لبن أمه. وتجاوز خالد الرابعة من عمره ولم يزل يعب هو الآخر من ضرعها المدرار .

كف الولدان عن رشف الحليب بعض الوقت ، واسترخيا فى ظل

نهديها، كما ترقد القرية وديعة فى حضن الجبل .

نهضا فتبادلا الثديين وتابعا السحب، والأم ما بين الاغفاء واليقظة تتمدد لإطعام ولديها، لكن عقلها يرتحل إلى بلاد بعيدة .. بعيدة .

تبدأ من واقعها ثم تبتعد مع أحلامها وآمالها، وتسرف فى البعد حتى تفقد علامات الطريق وتختلط عليها السبل .

طرقات هادئة على الباب .

دقات مهذبة تشى بذوق صاحبها وأدبه.

علت وجه أم أحمد كآبة مفاجئة .

قالت فى نفسها : لا أحد يطرق بابنا فى هذه القيلولة غيره فهو لحوح .

عادت الطرقات .. لم يعبأ الولدان .

طافت بخيال أم أحمد ملامح الطارق.

بدت صورته على وجهها ثقيلة ومملة .

أعلنت الطرقات مرة أخرى أنها لن تكف.

جلست الأم . صرفت خالداً وأمرت أحمد أن يفتح الباب .

راحت تلملم صدرها العارى .

نهض أحمد وفتح الباب . دلف الضيف . التقط الولد .

مداعبا رفعه إلى أقصى ما يستطيع . انزعج الصبى. تململ.

أنزله الضيف . أسرع إلى جوار أمه .

تقدم الرجل فاغر الفم ، مبتسما فى بلاهة . أسنانه البيضاء تبرق من خلال وجهه المعتم .

بكل الرقة قال : مساء الخير يا ست أم أحمد.

وبكل الاتزان ردت : مساء الخير.

بقى واقفا

ساد صمت.. وقبل أن يمتد، وضعت له أم أحمد نهاية معقولة : نعم يا عثمان.

قال فى ابتسامة بدت صادقة : نعم يا ست الستات.

سألته : أى خدمة .

تقدم خطوة وقال : أنا الذى جئت لأقول لكم أى خدمة.

بعزة قالت : شكرا يا عثمان.

ظل واقفا.

عاد الصمت يستولى على المكان.

فى هذه المرة ارتأى أن ينهيه. استعان بجرأته دون أن يتخلى عن الأدب المطلوب .

– هيه يا ست أم أحمد.

- نعم يا عثمان.

- ماذا فعلت ؟

- فيم ؟

- فى موضوعنا .

- أى موضوع ؟

- أنسيت بهذه السرعة ؟

- ذكرنى.

قال وقد أقعى على إحدى ركبتيه : غير معقول يا أغلى سيدة على وجه الأرض .

أدركت أسلوبه الثعلبى فقالت : أدخل فى الموضوع.

جمع أطراف ابتسامته المطاطة : دخلت فيه عدة مرات من قبل.

سألته : وماذا تريد الآن ؟

أجابها باستعطاف : رأيك .

قالت : آسفة .

فوجىء بردها القاطع فحاول أن يعتصم بحلاوة اللسان :

- هذه خامس مرة أو سادس مرة أعرض فيها طلبى، والله يعلم أنى لا أفكر إلا فيك وفى الولدين.

أثرت فيها رقته فقالت : ألف شكر يا عثمان .

استدرك : ولكن.

قاطعته بلهجة بذلت كل جهدها لتخفيف حدتها : ستكون أول من نلجأ إليه بعد الله .

- أنا أريد

- شكرا .. شكرا

- أنا لا أريد الشكر ، أنا أريد القـرب منك لأرعى مـصـالحك ومصالح الأولاد .

- نحن عليها قادرون .

وضع إبهامه فى فمه وامتصه بسرعة حتى خرج منه الدخان فتنهد . سحب من إبهامه كمية أخرى من الدخان . اتسعت عيناها برؤية هذا الرجل العجيب. قال : أنت وحدك منذ شهور طويلة، والمرحوم لم يترك لك إلا الهم .

أوقفته بعنف : عثمان.

تنبه إلى خطئه، فتحول عنه بسرعة وتابع :

- أقصد أنك لن تسلمى من القيل والقال .

انطفأ فى عينيها بريق الحياة وسكن فيهما الشرود.. آه .. إنها تدرى أكثر منه لغو الناس وحكاياتهم التى يختلقونها كلما جمعهم الفراغ ..

أدرك عثمان أنه قد أصاب ، وقد أدمى..

وليكمل نفاذ سهمه فى قلبها قال : ولا تنسى أنى أحبك.. أحبك من زمن بعيد، ولا زلت وسأظل أحرس بابك.

لم تجد ما تقوله فأغمضت عينيها

تيقن أنه نزع كل أسلحتها فهدأه خاطره.. وأخذ يطن وحده وهى لا تقدر على إغلاق نوافذ الأذن.

– لن تجدى أحدا يحبك مثلى.. ولن تجدى أحدا يفهمك مثلى..

لم تعد الأيام كما كانت من قبل.. تغيرت الأحوال ولم يعد فى الدنيا أمان.

تماسكت.. ولتسد فى وجهه بوابة الكلام قالت :

– امنحنى فرصة للتفكير.

هم أن يقول : لقد أعطيتك بدل الفرصة ثلاث، لكنه لم يشأ أن يبدو ثقيلا ومرهقا.

– سأحضر فى الغد.

– لن تعرف رأيى قبل أسبوع.

– أسبوع كثير.. كثير جدا.

أشاحت بوجهها. فرضى بما نال، اكتفى بنصيبه اليوم وهو كبير.

– أمرك.. سأظل أبحث عنك وراء صبرى

ذهب.. فتنفست الصعداء.

تمددت وأسندت رأسها إلى الجدار.

شردت تفكر فى هذا الداهية. برز ولداها، فأخرجت لهما الثديين.

عادت تمتطى جواد أفكارها الذى لا يتوقف.. عثمان.. عثمان.. ماله وما عليه.. ما وزنه بين الرجال وما حجمه؟

لا . لا .. القضية ليست مسألة وزن وحجم.. القضية هى القابلية.. إلى أى مدى تهش لرؤيته وتسعد بلقائه.

الحقيقة أنها تحس ثمة غرابة تكتنفه، ما طابع هذه الغرابة؟ إنها لا تدرى. كل ما هنالك أنه فى نظرها لا يشبه إنسانا آخر.

تذكرت أنها حين رأته فى المرات السابقة وكان يبيع الصحف إلى جوار المقهى، لم تكن ملامحه هى ذات الملامح التى تراها اليوم.

تراءى لها من قبل، كأن هناك تحت عينيه جرحاً غائراً، وتراءى لها مرة أنه أبيض اللون، وتراءى لها مرة أخرى كأنه أحمر وعيناه زرقاوان، ورفيع ناحل العود، ومرة قصير القامة مستدير الوجه جاحظ العينين. لكنه اليوم قمحى البشرة وبلا أى جروح أو ندوب، فما هذا الخيال المريض الذى شوه لها صورته حتى بدا منفرا مقززا، وهو وإن بدا اليوم هادئا ناعم الملمس كثعبان إلا أنه يبدو صادق الود، مشبوب العاطفة، فضلا عن ثباته على رغبته فيها وطلبه

لها منذ سنوات ... فلكم راقبها، وحملته لهفته عليها إلى المضى فى إثرها أنى ذهبت.

عرض عليها الزواج قبل أن يخطبها المرحوم فأبت. ولو خيروها بين آلاف الرجال والمرحوم لاختارته دونهم أجمعين.. فمن فى مثل طيبته ورجولته، ووضوحه، ومن فى مثل طلعته المهيبة وكفاحه وسعيه الدءوب، من أجل الأولاد ومن أجلها فى أتعس الأوقات.

مضت تتوكأ على عصا ظنونها وتفكر فى عثمان الشحات.

* * *

(٢)

يوما ما ظهر فى الحى عثمان. لزم القهوة يحدق فى المارة. يرنو للشمس. يلف سيجارة فى إثر سيجارة من وعاء معدنى صدىء.. يتسكع فى هذا الشارع وذاك بلا وجهة. بلا مهنة. بلا مأوى.

أدرك الجميع فى يسر أنه عاطل، وأنه حديث العهد بالمدينة الكبيرة.. بدا كأنه وفد خصيصا ليتجسس عليها لصالح قريته، من طول تحديقه فى العابرين وتأمله الأشياء.

لعله بذل جهدا فى البحث عن عمل ما، ولما لم يجد ما يتعلق به، قرر أن يواجه الحياة فى المدينة بأى أسلوب..

بدأ بأيسر السبل فى اكتساب الرزق الوفير.. وكان ذكيا فى هذا الاختيار.

هزيل نحيل كهيكل عظمى.. أسود الوجه مدبب الأنف، أما عيناه فغائرتان كأنهما تودان التراجع أو الاختباء، وإلى جانب أسماله المتهرئة نبتت له لحية.

فبدا شكله معقولا ومقبولا كشحاذ.. واتخذ له من المسجد مأوى.

وسارت معه الأمور سيرا حسنا، ودان له الزمان فترة.

كان ينضو عنه ثيابه الرثة بعد العشاء ويرتدى ثيابا أخرى ثمينة. يستحم ويتعطر. ويغدو شخصا آخر، يفيض بهاء وجلالا. يتجه إلى محل البوظة فى شارع يزيد.

هناك تعرف بنعيمة السمينة صاحبة المحل. فى أول الأمر رحبت به لسخاء يده، ثم أعجبتها نخوته، لأنه كان يسأل عنها عند كل ملمة. تصاعدت مشاعرها نحوه.. لكنه أبدا لم يصب فى قلبها كل أسراره، وأهمها عمله، اكتفى بالإقامة وتجرع البوظة التى كان يعشقها منذ سنين.

لاحت لعثمان فرصة رائعة للسطو على أحد المصلين بينما كان يتوضأ، وقد وضع حاجياته إلى جوار الحائط، لكنه قدم فى نفس اللحظة وأمسك بعثمان الشحات وهتف بأعلى صوته : لص . لص.

انقض عليه المصلون فأوسعوه ضربا، ثم تخلص منهم بعد جهد فلم يفكر إلا فى الفرار. وتبعه بعضهم لكنهم لم يعثروا له على أثر.. كأنه بعصاته ضرب الأرض فشقها واختفى فيها.

أسرع إلى نعيمة وتسلل خفية إلى الدور الثانى الذى سمحت له نعيمة أن يقيم فيه..

لزم حجرته شهورا.. كانت الحانة فى الدور السفلى تعج

بالسكارى وطلاب السمر، ونعيمة برغم حجمها الضخم تتدحرج بينهم فى خفة، وبين الحين والحين تهرب إليه بالطعام أو بالشراب أو بالأخبار أو بغير ذلك وتؤوب.

لم تستطع أن تعرف سبب علته، ولا السر فى حالته.. وماذا فى السقف يستهويه حتى ينفق الليل والنهار راقدا يتأمله . شارد اللب. ساهم النظرات.

أخيرا وجدت من يؤنس وحشة ليلها، ويبقى معها ومن أجلها. صحيح أنه لا يهتم بها، لكنها فترة لن تطول. هكذا الرجال تشغلهم أمور الرزق والمصير..

لقد مرت بتجارب عديدة فى الحب، شىء ما يشدها إلى هذا الرجل الغامض، فتراه أنسب لها من كل من عرفت..

تنهدت وهبطت لتذوب حركتها فى الضجيج. تحاول جاهدة أن تشغل بالها بزوار البوظة ونداءاتهم حتى لا يقتلها الفكر فيه.

سرعان ماتعود صورته تتمثل لها فى وجوه الناس.. فتتذكر ملامحه الحزينة وأفكاره الكئيبة التى تنهش رأسه.

أصبحت لا تحتمل النظر إليه. شملها حزنه. ولم يحدث إلا نادرا أن نظر إليها طوال هذه الأشهر. لم يحس بوجودها مطلقا.

قررت ألا تعبأ به ما دام لا يعبأ بها.

– يا لى من غبية اذ أتشبث بهذا المسكين.

بكت. بكت بعنف. لكنها لم تسمح لنفسها أن تبكى أمامه أو على مقربة منه. كانت تبكى فى البار وبعد أن ينصرف الجميع ولا يعود هناك إلا الصمت والبرد.

سألت نفسها فجأة: هل يعنى هذا أن امرأة غيرى استولت عليه. هذا لا يكون أبدا .. لقد اشتريته بدمى وأعصابى وقدرى.. ولن أتخلى عنه لأحد حتى لأمه.. لابد أن أستعيده إذا ذهب، وأحافظ عليه إذا بقى.

كان عثمان بالفعل قد أطلق مرة نظراته فى الفضاء فوقعت على إحدى الشرفات بعمارة الدريدى. فإذا امرأة باهرة الجمال موفورة الصحة تشرق فيها.

خر ساجدا لهذا الجمال الربانى الأخاذ، واضطرم قلبه بحبها، فدق فى أرضها أوتاده.

* * *

طلع النهار يوما ما، فإذا أهل الحى يلمحون رجلا أصلع، كبير الأنف مستدير الوجه قصير القامة، جاحظ العينين كث الحاجبين، يبيع الصحف والكتب القديمة بجوار المقهى.

هذا الرجل كان عثمان الشحات، ولم يكن فيه ما يوحى لأهل

الحى بالتعرف عليه.. كان خلقا آخر وسلوكا آخر.

مبتسما دائما وكان من قبل عابسا، خفيف الحركة دائب النشاط رغم عثرة فى قدمه اليمنى ورغم جسده الثقيل، وكان قبل ذلك بطيئا مملا وسقيما، لا يدنو منه ولا يتقرب إليه إلا الذباب.

أقام بالشارع الكبير فترة مزدهرة، اتسعت فيها تجارته، فإلى جانب الصحف أصبح يبيع الكراسات والأدوات المكتبية والمنزلية وبعضا من السجائر وصنوفا من الحلوى والفطائر.

رأى الناس معه امرأة سمينة. أيقنوا أنها زوجته فهى تقاربه سنا وحجما وسلوكا.

وقفت عند الفرش مرات فى حضوره ومرات فى غيابه.. كانت تسهل له كل عسير، وتستعين بكل السبل لتلبية حاجاته، وتحقيق طموحاته.. تحافظ عليه زوجا لها وشريكا لحياتها فى مستقبلها المجهول. عينها عليه حيثما ذهب. تحسب عليه حركاته وسكناته.

وأمكنها بحاسة نسائية فائقة وبخبرة بالرجال فريدة، أن تشم رائحة خيانة أو شروع فى خيانة.

لاحظت تطلعه إلى إحدى الشرفات فى عمارة الدريدى المقابلة. ولاحظت أيضا أنه يبرح الفرش فجأة ليتبع ساكنة الشرفة إذا خرجت.

استبد بها القلق، لكنها لم تتعود الكتمان. وكم من مواقف مرت بها كان التكتم على بعض أسرارها يحقق لها الفوز، أو على الأقل يحفظ ماء وجهها، لكنها لا تعرف التكتم ولا تحتمله.

لا تملك إلا أن تفيض وتفيض، وتعصر أعماقها لتفيض بكل ما فيها، ثم تهدأ بعد ذلك، ولا تهتم حتى لو اشتعل الكون.. بل ولو كانت هى فى الدفعة الأولى من وقوده.

واجهته بما رأت فأنكر، أقسم بالله العظيم الجبار الذى سيدخله النار، أن ما تقوله افتراء وتهم باطلة.

لم يكن أمامها إلا أن تطلب منه الزواج فورا وإلا صدق ما فكرت فيه. ماطل وسوف.. لكنه جاء.. جاء الوقت الذى كان حتما أن يجىء.

ترقبته وهما جالسين أمام الفرش فى عصر يوم رائق جميل.

بعد غذاء دسم سد على الجوع كل منفذ، حتى لقد أحس عثمان أنه امتلأ إلى شدقيه، وأنه ربما لا يفكر فى طعام قبل أسبوع. راحت بنفسها تطلب له الشاى المخصوص من المقهى.

امتدت يده إلى علبة من علب الألوان التى يستخدمها التلاميذ فى الرسم وأخرج منها سيجارة.

أشعلها.. سحب أنفاسها بانسجام، وتجشأ .. انساق مع تيار أفكاره.

بعث نظراته تتفحص الشرفة. بجسده المرتكز على الرصيف أحس بقدوم نعيمة. وشت بها خطواتها الثقيلة. قدمت له الشاى المخصوص. مد إليها يده بسيجارة من علبة الألوان.

امتصت أنفاسها ونفثت الدخان. تخدر الهواء وهدأت الحركة نسبيا حولهما.. رويدا رويدا أحسا أنهما وحدهما.. وحدهما تماما.

كان عثمان منهمكا فى اقتفاء آثار أفكاره.. تصعد أفكاره وتهبط.. تندفع مرة ثم تعود فتتروى وتراجع نفسها.. وتستبدل هذه الخطوة بتلك.

أما نعيمة فكانت تعد السؤال.. السؤال الذى لا يفارقها ليل نهار.. السؤال الذى يجب أن تسأله.. قالت :

- أما آن الأوان ؟

- صبرك بالله يا نعيمة.

- ولماذا الصبر ؟

- حتى أعد نفسى.

- لا نحتاج لغير مأذون.

- الأمور ليست بهذه البساطة.

- أشك فى نيتك.

- إلا نيتى، فلا يشك فيها إنسان.

- لقد أعطيت ولم أبخل.

- ولن أكون بخيلا أبدا.

- لقد أعددت كل شيء. وأنا في انتظار قرارك.

- أنا قلق.

- بل أنت تناور.

- نعيمة.

- أنا ذاهبة إلى البيت. أمامك أسبوع لتحزم أمرك. واعلم أنى لا أرغمك على شيء، لكني لا أحب أن أكون مطية أو ستارا.

غاب أياما. استبد بها القلق. تأكد لها أنه يناور ويلعب لعبة ما. تحول تكوينها الداخلي من قطة وديعة إلى نمرة تترقب لحظة الافتراس.

فوجئت به وسط الردهة أحمر العينين. ينفث الدخان.. فرحت به وعادت لتصبح - كما بدت - قطة وديعة.

- أهلا . اجلس . تبدو متعبا.

تجمد في مكانه لحظة ثم جلس.

كررت قولها : تبدو متعبا. ماذا بك؟.. ماذا حدث ؟

منكس الرأس لاذ بالصمت.

- أين كنت كل هذه المدة؟.. آه.. يبدو أنك غاضب مني.

لا يبلغها من رد إلا سحابات الدخان.

- هل حقا غضبت منى؟

بصوت محشرج أجابها: لست أنت.

- قلقة أنا عليك وعلى.

- ألا تثقين بى ؟

- أرجوك. لن نعود إلى ما كنا فيه.

أدرك بذكائه النادر حجم مشاعرها ودرجة حرارتها..

رفع عقيرته : بل يجب أن نعود ونعود.

- أرجوك.

- أنت كل يوم تفتحين لى بابا جديدا للخلاف.

- أنا .. !

- نعم .. أنت لا يرضيك أبدا أن نعيش سعداء.

- أنا .. !

- نعم .. تقولين أنك قلقة. أنت بالفعل قلقة لأننا متفاهمان متعاونان.

- متفاهمان. متعاونان. بأى صورة. بأى وضع؟

- آه.. وصلنا إلى الأفكار القديمة البالية .

- أفكار قديمة !

– نعم . أفكار عفى عليها الزمان. لماذا لا تكون المسألة بيننا حرية كاملة. تتيح لكل منها أن يسعى إلى الآخر وقتما يشاء ويغيب عنه كما يشاء. لماذا تصرين على صفقة البيع والشراء.

– إنها شركة وليست صفقة.

– أنت تريدينها صفقة.

– أنا لا أريد.

– أنت تريدين امتلاكى.

– أنا !

– نعم أنت تريدين الـ .

– عثمان .. أنا لا أريد شيئا ولا أريدك.

– هكذا اذن.

استدارت. ألقت جبهتها على البار . زاد توترها إلى درجة البكاء وهى تردد :

– أنت شخص غريب الأطوار. لا تحترم اللحظات التى عشناها ولقمة العيش التى جمعتنا. أما أنا فأقدسها.. ولم أفكر أبدا إلا فى أن نكون معا أسرة صغيرة، نكمل بها أيامنا فى أمن ومحبة.. لكنك تفكر لا كما يفكر البشر.. أنا.. أريدك يا عثمان.

تحولت ناحيته لتلقى فى صدره آخر كلماتها. لتصب فى أعماقه

ثمالة أوجاعها، وحيرتها فيه منذ عرفته.

اكتشفت فجأة أنها تحدث نفسها. فانهارت على الأرض باكية.

لم يمض أسبوع حتى كان المارة فى الشارع الكبير يشهدون سيارة بيضاء صغيرة، على سقفها يبرق الطربوش الأحمر الصغير، توقفت أمام فرش عثمان. فى أعقابها جاءت مسرعة عربة جيب. توقفت ونزل منها مسرعين نحو ثمانية من الجنود مشرعى الأسلحة. التفوا جميعا حول عثمان.

تناولوا بضاعته وتناقلوها إلى أن سقطت فى قاع الجيب ودفعوا معها عثمان.

قبل أن تنطلق السيارتان بالجنود والحمولة.. كان بعض أهل الشارع قد سألوا السائقين عن سر الكبسة.

– حشيش.

(٣)

بعد خروج عثمان من السجن فوجىء أن ساكنة الشرفة قد تزوجت وأنجبت أحمد.

اشتعلت رغبته فى الانتقام من نعيمة.. لكنه الآن يحتاج إليها. آثر أن يوارى أحقاده ويكبح جماح غيظه.

اقترب من الحانة، تناهت إليه أصوات الضجة المعتادة.. أطل من الباب فى تردد. كان الضوء خافتا والرؤية ضبابية من تكاثف الدخان المنعقد فى الحانة.. رأته نعيمة. اندفعت نحوه. لوحت له بذراعيها فى انفعال وجذل. طلبت منه أن يدخل دون إمهال.

سألها الجميع : من هذا..؟ قالت : أخى آب من سفر طويل. فتعالت صيحات الترحيب. وفى حماس أفسحوا له مكانا على المائدة..

بعد قليل اعتادت عيناه هذا الجو الذى يقرب من الظلمة.

أخذوا يصبون له البوظة ويتحدثون جميعا فى وقت واحد..

يسألونه ويجيبونه دون أن يفتر ثغره عن كلمة.

شرب كثيرا، لكنه كان متمالكا نفسه، شاخصا ببصره إلى

الأمام.. أخيرا لفت نعيمة السمينة عنقه بذراعيها قائلة: هيا يا حبيبى لترتاح.. لقد عانيت الكثير وأنا أيضا عانيت، لكنى سأبذل جهدى لتعويضك.. لا تيأس.. فالعفو عنك معناه أنك ولدت من جديد.

سار معها صامتا كالمخدر. وارتمى على السرير فنام.

* * *

بعد أسبوعين أو يزيد عاد إلى القهوة التى تواجه شرفة أم أحمد وجلس.. بدا فى صورة جديدة.. كرش منتفخ وبشرة سمراء. شعر أسود كشعر الزنوج، ومسبحة فى اليد وزبيبة فى الجبهة وجلباب فضفاض وخاتم ذهبى كبير فى خنصره الأيسر.

وعلى جدار القهوة الخارجى المطل على الحارة.. لافتة كتب عليها:

عثمان الشحات.. سمسار

تكررت مرات جلوسه على باب العمارة التى تسكنها أم أحمد.

عرف وسط الحى بالطيبة والوداعة والتقوى وانتظام المواعيد ومداومة الصلاة وذكر الله.

كان يقضى وقته طيلة النهار يتلقى رغبات المستأجرين والمؤجرين والبائعين والمشترين.. حلقة اتصال بينهم.

آثر البقاء فى الشارع ليكون قريبا من أم أحمد حبه الخالد، أقنع نفسه سواء بالعقل أو باللاعقل أنها مستقبله .

حرص منذ البداية أن يدعم علاقته ببواب العمارة. ساعده وقام عنه ببعض العمل ووفر عليه أكثر المهام، واتخذ منه بئرا لأسراره وأخا وأبا حتى سلم العجوز له وبادله أسرارا بأسرار، وعلما بعلم وأصبح عثمان يفهم عن العمارة وسكانها أكثر من البواب، وأصبح سكانها يعرفونه أكثر مما يعرفون عم برهام، ويعتمدون عليه ويسألون عنه إذا غاب، حتى غدا مع الأيام معلما من معالم الشارع، ومرجعا كبيرا لابد من اللجوء إليه فى كل شأن .

بعد أن أعد العدة للتخلص من نعيمة، حتى لم يبق إلا التنفيذ، جاء يوما إلى برهام البواب حزينا مكتئبا وارتمى إلى جواره.

تطلع العجوز إليه فراعه منظره. سأله : ما بك يا عثمان ؟

كان ينتظر السؤال، فرح بالماء المتدفق. لم يقف فى طريقه .

– طردنى المعلم كرشه من الغرفة، وألقى بحاجياتى إلى الشارع.

ومنذ الصباح وأنا أدور فى أطراف المدينة باحثا عن أى «خن» أو عشة فلم أجد.

الغريب أننى سمسار. لكن باب النجار «مخلع» .

رق قلب العجوز له وذاب عطفا عليه. شرد لحظة. تذكر أن الدريدى صاحب العمارة يقيم بعيدا ولن يعرف بأمر عثمان.

قال لعثمان : لا تحمل هما. اذهب واحضر حاجياتك إلى غرفتى

حتى يفرجها الله.

اطمأن عثمان لأن الثمرة التى اشتاقت نفسه إليها، سقطت أخيرا وشرع فى التهامها.

– لا أدرى كيف أشكرك.

– اذهب وارجىء الشكر الآن .

غاب عثمان ساعة ثم آب.. تخلص خلالها من نعيمة، وشفى غليله وجاء فأقام بحجرة البواب. وفقدت الشرطة كل أثر للجانى..

ما هى إلا شهور قليلة حتى فوجىء الجميع بوفاة زوج أم أحمد. فحزن الحى كله عليه وعلى شبابه ورجولته.. لكن الحزن لم يعرف طريقه إلى قلب عثمان..

تغلغلت فى نفس عثمان قناعة بأن الله يؤيد مسعاه، ويأخذ بيده ويهديه أفضل السبل، بل ويحطم ما يقابله من عقبات. كأنه قد قرر أن يعوضه عن أيام الكفر اللعينة وأيام السجن القاسية.

– ستبتسم الأيام لى.. ما أجمل أن يحدث هذا!.. لكم شقيت فى سبيل هذه البسمة!.

عقد العزم على أن يغير من هيئته تماما، ويصبح فى صورة أخرى جد مختلفة وهو على ذلك لقادر..

مرت بضعة أشهر قضاها على مضض، وسار خلالها على شوك

الصبر الجارح، ثم قرر أن يطرق باب أم أحمد يسألها الزواج.

يطرق وهى ترجىء وتسوف.. ويعود بعد حين ليطرق بابها وهى ترجىء وتسوف، حتى لم يعد بمقدورها رده ولا سبيل أمامها إلا القبول.

رضيت. وانصهر معدن إرادتها النفيس الصلب على يد عثمان.

وفى لمح البصر كان قد نقل حاجياته إلى شقتها، وبين يوم وليلة، أعد ثوبا جميلا لها وحلة أنيقة له. وتم الزواج.

وهى تدور فى حلقته كالنائمة أو السكرى.

فى ليلة الزفاف قال لها : جهزى للولدين فراشا بالحجرة الأخرى. لم تجد ما تقوله غير أن تطيع.. فهذا حقه.

أعدت لهما الفراش وعادت إليه.

قال لها فى شوق :

– أيها الحسن المخلوق خصيصا من أجلى.. تعالى إلى.

استلقت أمامه.

حدق فيها طويلا. ثم قال : أين الابتسامة المضيئة ؟

أين الذراعان الجميلان يمتدان فيحيطا بى، ويحليا رأسى بتاج الحب.

لاذت بالصمت، كان يأمل أن تقدم إليه قربانا من الحركات الفاتنة

المزوجة بالشهوة.

لما أيقن أنها لن تحرك ساكنا، اقترب منها وانقض على الصدر الشهيد .

أخذ يعب وحده من خير الثديين الكبيرين، وقد بدا كالكلب الجوعان الذى وجد أخيرا عظمة يغلفها اللحم.

تعالى صوت نهمه يشوه جبهة الليل الساكن.

تجرع الحليب وتجشأ، ثم نهض. مشى قليلا. أكل حبات من الفاكهة. وضع إبهامه فى فمه. امتصه فى عجلة إلى أن عبأ الدخان شدقيه. نفثه فى تلذذ. اضطجع إلى جوارها. امتص إبهامه. نفث الدخان فى وجهها. حدقت فيه مشدوهة.

عاد يعتصر الصدر كبرتقالة ويعب فى شراهة، ثم يتواثب فوق جسدها المرمرى الأبيض ويقضم لحمها المكتنز .

كان نور الصباح قد بدأ يخفت رويدا رويدا، وكأنه قد عقد العزم على الاستسلام لظلمة المساء.

.. ..

فى اليوم التالى

عندما أمعن الصبح فى الشروق. دنا الولدان يبغيان طعامهما. رمقهما عثمان بنظرات شذراء.

– لا مكان لكما عندى.. هذان الثديان لى وحدى ولن يأكل منهما غيرى.

ثم رنا بطرف عينه إلى أم أحمد التى لم تحفل وقالت :

– إنهما ولدى قبل أن أعرفك.

– أنا لا أطردهما.. لكن من واجبك أن توفرى لطعامهما مصدرا آخر غير هذا المصدر.

تنهدت أم أحمد، ثم وضعت طفليها على بطنها ومدت لكل منهما طرفا لحميا من بطنها وأمرت كل منهما بأن يمص الطرف.

حملق الولدان فى عثمان. فاحتضن الثديين ودس رأسه بينهما.. فى حين مضى أحمد يجذب طرفا من لحم البطن كمن يشرب النرجيلة حتى صنع لنفسه حلمة، وأصبح هذا الطرف من اللحم ثديا.

عاود الجذب والمص حتى تدفق الحليب من الثدى الجديد، وكذلك فعل أخوه بطرف آخر.

هكذا استقر الولدان على هذا المصدر الذى يجاور سرة الأم.

مضت أيام وعثمان لا يبارح الدار، ولا ينهض عن الصدر ولا يرفع فمه عن الثدى إلا ليمتص إبهامه ويدخن ثم يؤوب إلى الثدى الآخر.

أم أحمد ممددة كعادتها صابرة راضية أو غير راضية.

لا أحد يعرف إن كانت غاضبة أو نادمة، أم أنها مستسلمة، أم يا ترى يلقى هذا الوضع هوى فى نفسها.

فى أحد الأيام قالت لعثمان الذى كان منهمكا فى تأمل أظافره الطويلة :

– وماذا بعد ؟

– بعد ماذا ؟

– ألن تذهب إلى عملك ؟

– أى عمل ؟

– ألا تعمل ؟

– لا.

– فكيف نعيش؟

– يرزقنا الله.

– بلا عمل.

– بالعمل طبعا.

– إذن توكل على الله.

– مازال الوقت مبكرا.

– ومتى يبدأ عملك هذا ؟

– فى الظهيرة.

- أى عمل هذا الذى يبدأ فى الظهيرة ؟

- السمسرة.

- هاقد اقتربت الظهيرة.

- وماذا يجدى خروجى وليس عندى شقق لعرضها على الناس؟.

- لن تأتيك الشقق هنا فى المنزل.

- أقصد ليس عندى شقق، ولن تكون هناك شقق.

- لماذا تسددها وأنت هنا قاعد ؟

- لم يعد بهذا الحى شقق أو متاجر للايجار أو البيع.. اكتمل العدد.

- تعنى أن عمل السمسرة أصبح بلا مبرر.

- ما أعظم ذكاءك !

- ومن أين سنأكل ؟

- سأتصرف .

- إذن هيا.

- آه .. يبدو أنك ضقت بى.

- أريد طعاما.

- الخير وفير والحمد لله.

- خذ من التل يختل.

- لا تعقدى الأمور.

- ما الذى جرى لك ؟

- كما أنا .

- لا .. لست أنت.. كنت نشيطا ودؤوبا متحمسا.. خفيف الحركة.

- بل قولى لى أنك أنت التى تصرين اليوم على خروجى.. وأنا مازلت فى شهر العسل.

- أى عسل يا رجل.. أقول لك أنا والأولاد فى حاجة إلى طعام.. جوعى.. جوعى.

- إنكم جوعى منذ أن تزوجت المرحوم.

- لم يتركنا جوعى. بل تركنا فى عز وهناء.

- فما بالك اليوم تشكين الجوع.

- الكلام معك مضيعة للوقت.. ابق أو اخرج .. أنت حر.

- سأبحث عن عمل.

- إذا كنت حقا بلا عمل.. فقد ترك المرحوم عربة بمعداتها، كان يعد فيها «ساندوتشات» الكبدة والكفتة أمام «سينما مترو» فى وقت فراغه، وعند احتياجه لمزيد من الدخل، فعليك أن تصنع صنيعه ولن تكلفك غير ثمن قليل من الكبدة، تكسب على الأقل مثله فى الليلة الواحدة.

حدق فيها باستهزاء وقد برز ناباه الأماميان :

- أنا لا أبيع الكبدة.. هذا عمل لا يليق برجل له اسمه وصيته فى الحى كله.

- اسمك وصيتك أم موتنا جوعا.

- لا أحد يموت جوعا.

- العربة عندك فى «الجراج» العمومى فتصرف كما تشاء.

- لا تحملى هما .. سوف أتصرف.

ارتدى ملابسه وخرج .

* * *

عاد عثمان بعد ساعتين يحمل طعاما وفاكهة وعدداً من علب السجائر الفخمة، وقد حلق ذقنه وتزين واشترى لنفسه ساعة جديدة، ثم أخرج من تحت ابطه لفافة، فضها فإذا هى قطعة نحاسية بحجم الكف قد حفر عليها اسمه.. ركبها على باب الشقة من الخارج.. عثمان الشحات.. رجل أعمال..

هزت الدهشة أم أحمد من الاعماق. إنه رجل عجيب حقا .. كيف أمكنه شراء كل هذه الأشياء بعد ساعتين من العمل فقط .. أى عمل هذا الذى يحقق هذا الربح؟!.

سألته : من أين لك هذا ؟

قال مشيرا إلى رأسه : هنا يوجد مخ.

تأججت لهفتها.

قالت : أعلم.. ولكن مهما كان هذا المخ عبقريا، فكيف يتأتى له أن يكسب أكثر من خمسين جنيها فى ساعتين.

قال : ستون من فضلك.. ستون جنيها.

– كيف حصلت عليها يا عثمان ؟

تركها تغلى.. امتص إبهامه الأيمن ومضى يدخن وينفث دخانه إلى أعلى ويرقبه، ثم قال :

– بتشغيل المخ. بالتفكير. بالفهلوة.

– كيف تحقق الفهلوة كل هذا المبلغ ؟

– حصلت على هذا المبلغ فى أحسن صفقة .

– كيف ؟ .. كيف ؟

– كانوا كلهم يعرضون ثلاثين وأربعين، لكنى أفهمتهم بأنها من الصلب الذى لا يصدأ أبدا وبها توصيلات كهربائية وموقد بالغاز و...

– ما هى ؟

– عربة الكبدة .

– عربة الكبدة هى التى بعتها بستين جنيها فقط .. لقد خربت بيتى.

طال ناباه وتمددا حتى بلغا ذقنه وشابت بشرته زرقة، واتسعت عيناه المحمرتان.

قال : أولا بيتك مخروب منذ البداية، ثانيا كانت العربة قديمة ولا تصلح لشىء ، وأنا الذى خلعت عليها القيمة.

– لقد تكلفت أكثر من مائة وخمسين جنيها ولم تستعمل إلا شهورا قليلة.

– لم يرض أحد بشرائها، لولا طريقتى الذكية فى الاقناع.

– أعرف طريقتك هذه. لكن العربة لم تكن فى حاجة إليها.

– أحضرت لك طعاما.

– لا أريده.

– يبدو أنك من النوع المعقد الذى يحب الغم وحمل الهم، ثم ما جدوى أن تحتفظى بمثل هذه النفايات التى لا تساوى شيئا.. أهذه هى ثروتك التى تباهين بها الناس؟!

– إن لم تكن ثروة فهى مصدر رزق.

– رزق لا يغنى ولا يسمن من جوع.

طاف شىء ما فوق جبهتها كأنه رغبة فى البكاء. لكنها تماسكت، وأيقنت مرة أخرى أنه لا جدوى من مناقشة هذا الرجل الذى يملك قدرة عجيبة على اللجاج فى كل لحظة ولوقت طويل.

فجأة تمثل لها طيف زوجها الراحل واقفا بالباب، يطل عليها بعيون أحرقها الأسى، أشارت بقلبها نحوه. تمنت أن يدخل إليها، لكنه قال أو شبه لها أنه قال : إذا كان يونس قد خرج من بطن الحوت فلن يتخلى الموت عمن ضمهم فى أحشائه، ولن يستطيع أحد أن يستنقذنا منه.

بلا صوت قالت : أنا قعيدة كعصفور مكسور الجناح.

هز الطيف رأسه ومضى.

حدثت نفسها وهى منكسة الرأس كالسيف الحزين :

– كان رمز الرقة والحنان.

وكنا مجردين من الكذب والرياء .

كنا وكنا .

أغمضت العينين ثم استطردت : إلى متى أظل أعطى وأعطى بلا وعى، ثم أندم دون أن أتمسك بما يكفى من الجرأة والجسارة.

مضى عنها عثمان ليخلع ملابسه، وقد أدرك أنه كسب معركة من زوجته التى يحسب لها فى قرارة نفسه ألف حساب.

أخذ يكح ويتنحنح.. إذ لابد أن يبدو منتصرا ولابد قبل هذا أن يحتل مكانه كزوج حقيقى.

امتص إبهامه وأخذ يدخن فى تلذذ، ويستمتع بمراقبة سحب

الدخـــان، وهـو يحس أن أم أحـــمـــد تكاد تنطح الجــدار، أو تنشب أظفارها فى حلقها المملح بالأحزان .

بعـد أن تطلع فـى ساعتـه الجـديدة عدة مرات وتـأملهـا من كل الجـهـات، تقدم من أم أحـمـد وفك الأزرار، أخـرج الثديين وأخـذ يعب منهما فى نهم ولهفة دون أن يعيرها أى اهتمام.

هادئة صـامـتة، لا يدرى أحـد إذا كـانت راضـيـة أو غيـر راضـيـة، ترنو للفضاء وتحدق فى البعد اللانهائى للاشياء.

(٤)

بعد شهور أنجبت أم أحمد ولدين.

رفض عثمان أن يسلمهما ثدييه، احتفظ بهما لنفسه، فوضعتهما أمهما على جانبى سرتها، مكان أحمد وخالد اللذين هبطا إلى فخذى أمهما، فصنعا فيهما ثديين جديدين بنفس الطريقة القديمة.

أخذ كل منهما يجذب اللحم المكتنز بفمه فى حنان وقوة حتى تكونت حلمة، سواها بشفتيه وعاود استحلابها حتى تدفق منها اللبن الدافئ فشرب حتى نام.

بعد شهور أنجبت أم أحمد ولدين آخرين، ورفض عثمان مرة أخرى التخلى عن ثدييه، فوضعتهما أمهما على جانبى سرتها وهبط إبراهيم وعلى إلى الفخذين وهبط أحمد وخالد إلى الساقين فصنعا ثديين جديدين.

* * *

فتح الباب فجأة ودلف إلى الشقة رجل طويل عريض يرتدى جلبابا أخضر وعلى رأسه طربوش. له شارب كث يشبه المكنسة..

أخذ يصفر ويغنى.

ارتاعت أم أحمد.. كيف فتح هذا الرجل الغريب باب الشقة..

حدقت فيه.. فضحك.

- لماذا تبحلقين فى هكذا ؟

- أأنت عثمان ؟

- نعم أنا هو.

- فماذا جرى لك ؟

- آه. أنك تدهشين لسعادتى وبهجتى.

- أنك دائما سعيد وبلا سبب.

- أما اليوم فهناك سبب.

- ما هو ان شاء الله؟

- نتيجة صبرى .

- وشكلك هذا هو نتيجة صبرك.

- دعك من هذا الآن.. إنه لزوم الوضع الجديد.

- وما الوضع الجديد؟

- أحال صاحب العمارة برهام العجوز إلى المعاش، وطلب إلى مباشرة العمارة فى غيابه.

قالت فى امتعاض: أنت سعيد إذن لأنك ستصبح بوابا ؟

- عمل ثابت وأجر ثابت.

- بعد سنوات من البطالة.

- ألا يحق لنا أن نسعد به .

- الحمد لله على كل حال.

- بهذه المناسبة أرى أن يخرج أحمد وخالد للعمل.

فى فزع قالت : والمدارس !

- فترة الإجازات فقط .

- حسن .. ولكن أى عمل ؟

- أى عمل.. أى مهنة، يكسبان خبرة ويدران مالا .

عاود الغناء فى ثقة وهو ينضو عنه ملابسه، ثم دنا من الثديين وأخذ يتجرع منهما، حتى نام على الصدر وعلا غطيطه.

وبينما هى راقدة ساكنة تتأمل عقربى الساعة يجوسان خلال أرقام الدائرة الزمنية، سمعت طرقا على الباب. لكزت أحمد لينهض فيرى من الطارق.. هب إلى الباب وعاد يقول لها : رجل يسأل عن عمى عثمان.

أيقظت عثمان.. همست فى أذنه : رجل بالباب يسأل عنك .

- من هو ؟

- لا أعلم .

نهض وتقدم جهة الباب، وما لبث أن دوى صوته .

- غير معقول .. حرامى الحلة يطرق بابى.

انقض على الضيف معانقا ومهللا ومرحبا .

جذبه إلى الداخل دون أن ينظر هل استعدت أم أحمد لاستقبال الوافد الغريب أم لا .

- تفضل يا أمين .. بيتك .

لمح أمين أم أحمد وهى ترتب ثيابها وتعتدل . توقف هنيهة، جذبه عثمان .

- تفضل يا أمين .. أنها أم أحمد زوجتي.. يعنى أختك.

- مساء الخير يا ست أم أحمد .

ردت السلام وهى مبعثرة ومرتبكة.

قال عثمان : أمين .. أعز صديق لى . كل طفولتنا قضيناها معا .

وأول مزاياه الرجولة وتقديس الصداقة، يضحى بأى شىء فى سبيل الأصدقاء .

قالت : أهلا وسهلا .

استطرد عثمان فخورا : أما حكاية حرامى الحلة هذه فلابد أن تعرفيها .

ضحك الضيف وأحنى رأسه تواضعا : لا داعى يا عثمان.

أصر عثمان على أن يقص الحكاية حتى تدرك أم أحمد رجولة أصدقائه ومستوى النخوة لدى أعوانه الكثيرين، وأنه ليس ضائعا كما قد يتبادر إلى ذهنها .

قال : فى أحد الأيام كنا نحضر زفاف صديق لنا فى بلدة قريبة من بلدتنا وبذلنا معه كل جهد ممكن، من الصباح إلى الحادية عشرة مساء، وحتى ضمه وعروسه عش الزوجية.

قضينا النهار كله فى تعليق الزينات وتوصيل الكهرباء وتجهيز السيارات بالورود والبالونات والأشرطة الملونة. وقمنا بتنظيف الشارع الذى يقيم فيه العريس وفرشناه بالرمال .

ولما بدأت الضجة، احتفالا ريفيا بهيجا بالعرس .. أطلقنا النار ورقصنا ووزعنا الشربات والحلوى.

سهلنا كل عسير ولبينا كل نداء، دون أن نتناول لقمة أو نشرب جرعة ماء.

وأخيرا وجدنا أنفسنا نحن الأربعة فى الشارع، أغلق أصحاب الدار من دوننا أبوابهم. ولا سبيل أمامنا للعودة إلى بلدتنا فى هذه الساعة، والجوع يمزق أمعاءنا.

قال أمين بكل غيظ : أنبذل كل هذا الجهد من أجل العريس الذى تذكر نفسه ونسينا.. آه.. وهو الآن ينعم بامرأة جميلة ولديه كل ما لذ

وطاب ، أما نحن فإن التعب يهدنا والبرد يقرص جلودناوالجوع ينهش بطوننا.

وجم أمين وشرد لحظات ثم بارحنا ومضى.

سألناه : إلى أين ؟.

قال : أمهلونى عشر دقائق.

عاد أمين بعد ثلث ساعة، يحمل حلة الطعام المخصصة للعروسين، ولم يكونا قد قارباها بعد. وكان ما بها من طعام يكفى عشرة أفراد.

هجمنا عليها هجمة رجل واحد، وأخذنا نأكل حتى بلغ الطعام حلوقنا، وتمددنا على أحد المصاطب حتى الصباح أو حتى الضحى.

أشار علينا أمين أن نذهب لنبارك للعريس. توجهنا إليه نشكو له مبيتنا على لحم البطون، فبدا عليه تأثر شديد وأقسم أن يكون غذاؤنا اليوم عنده. وقد كان.

أرأيت يا أم أحمد ماذا يفعل هذا الرجل فى المواقف الحرجة.

– أهلا يا أمين.. يا ألف أهلا .

همت بالنهوض فقال عثمان : إلى أين ؟

– سأعد الشاى .

– أى شاى يا حاجة، هذا أعز صديق ولن نقدم له الشاى، بل

سنقدم له أغلى ما عندنا.

- لا شيء يعز عليه.

- إذن استريحى أنت، وألقميه ثديك فلعله الآن فى منتهى الجوع، بل إنه طول عمره يعانى من الجوع، وعلينا أن نعوضه بعض ما عانى.

تمددت أم أحمد فى كسل، واقترب منها أمين حرامى الحلة دون خجل. حدقت فيه بنظرات محذرة كنمرة تستعد للنزال لكنه لم يرتد، ومضى قدما إلى الثديين الكبيرين.

أخذ يمتص وصوت الحليب المتدفق إلى فمه يتناهى واضحا إلى الأسماع.

تكررت زيارات أصدقائه القدامى، محمد غربال الذى شاركه الهروب من البلدة إلى دمنهور بعد أن اعتديا بالضرب على ابن فرغلى باشا، والشيخ عبد الظاهر عيسى معلمه فى كتاب القرية، صاحب الفضل الأول عليه، لأنه كان مصدر العلم الوحيد الذى تلقاه فى حياته.

على يديه عرف معانى الحروف وأشكال الكتابة وحل ألغاز الكلمات.

صحيح أنه أشبعه ضربا، لكنه الآن ذو طعم خاص وحلاوة يلذ له تذوقها.

حتى زوج أمه جاء فأكرمه ونعمه وأطعمه من أعز ما يملك .. ثدى أم أحمد.

أما هى فما عليها إلا أن ترقد وتقدم ثديها للأقارب والأصدقاء، لكنها مع الأيام بدأت تدرك حقيقة عثمان فهو لا يعرف إلا نفسه، ولا يبحث إلا عن ذاته ليعشقها ويحرق البخور حولها تعبدا.

* * *

(٥)

تدافعت قوافل الأيام وهى تعبر صحراء الزمن.. تكاثرت الذرية، وتعددت الأثداء والحلمات فى جسد أم أحمد.. وهى كما هى.

تطيع وتحدق فى الأفق البعيد من خلال نافذة الردهة المفتوحة دائما أمامها، تبحث عن أول خيوط الأمل المتشابكة، لا تدرى من أين تبدأ. لا تستطيع أن تمسك بطرف الخيط الذى تتوالى بعده أيامها الهانئة.

تجاوز أحمد الثامنة عشرة، لكن مشكلته الأولى وأخوته أنهم لا يستطيعون أن يحققوا شيئا واحدا مما يبغونه. وليس لهم أى رأى، بل واكتشفوا أيضا أن أمهم بجلال قدرها وخيرها الوفير وشخصيتها المرموقة لا تتمتع بأى سلطة.

شق ذلك عليهم حتى تساءل بعضهم :

– لماذا لا تنال أمنا ما تستحقه من الراحة، بل ما تستحقه من الملبس والمأكل.. من النزهة والتمتع بمباهج الدنيا؟.

ورد الآخرون: إنها ليست إلا بقرة، يأكل زوجها لحمها ويمصمص عظمها ويمتص رحيقها هو وأقرباؤه.

فى الجهة المقابلة كان عثمان يفكر طويلا فى الأولاد، لماذا يظل يحمل همهم لسنوات أخرى؟ من أين له النفقات الباهظة لسنوات أخرى؟ من أين له النفقات الباهظة لدراستهم بالجامعة. وما الداعى لهذه الجامعة، الأفضل أن ينزلوا إلى معترك الحياة ليحصلوا له على المال .

أكثر من ثلاثة عشر عاما وهم فى كنفه، أولاده وأولاد المرحوم حتى غدا أصغرهم كالثور، ومازالوا جميعا يمتصون عرقه وجهده ولبن أم أحمد.

لا جامعة. يكفى هذا القدر من التعليم، وماذا نفيد من تعليمهم فى هذه الأيام؟ القرش وحده هو المطلوب .. فلا أمل فى صد هجوم الفقر إلا بالقرش.

ناداهم.. نقل إليهم رغبته، وتركهم يضربون أخماسا فى أسداس.

فضفضوا عن ثورتهم لأمهم التى كانت ثائرة مثلهم، لم تجد فى نفسها قدرة على رده، فهو الزوج، والزوج كما أوصاها الأهل هو الرب.

كانت الأم تدرك بإحساسها الفطرى الساذج أفكار عثمان الشحات وخططه ومراميه.

كانت على ثقة أنه يريد أن ينشغل عنه الأولاد بأى عمل، وحينما

يكسبون قرشا لن تكون لديهم الفرصة ليراقبوا ما يفعل، بل لن يكون لديهم أى قدرة على التفكير.

يريد أن يوفر لنفسه جوا هادئا حتى يتمكن من تصميم مملكته الخاصة.

كانت تدرك أن تصرفاته الغريبة تحمل فى طياتها سرا، سينكشف حتما يوما ما ، لم تعرف بعد ما هو، وكان عليها أن تنتظر فى توجس وحرص.

سألته : لماذا طلبت إلى الأولاد ترك الجامعة ؟

– عليهم النزول إلى العمل. إلى الحياة .. فبدلا من أن يكونوا مجالا للانفاق، سيكونون مصادر دخل.

– وكلامك الأول.

– بخصوص.

– تعليمهم لتكوين أسرة نموذجية .

– لقد علمتهم.

– ما حصلوه لا يكفى.

– العمل هو الأنسب لتكوين أسرة تستطيع العيش.

– وهل قوامها السباك والسمسار والنجار ؟

– وماذا فى هذا ؟

- أرى أن طموحاتك قد هزلت وتحللت .

- بل قولى إنها تساير العصر وتماشى الزمن .

- بالعكس .

- كيف ؟ افهمينى يا أم المفهومية.

- أنت تشجع الأولاد على السعى من أجل المال بلا شخصية بلا علم وبلا وعى وبلا قيم.

- من يريد أن يتعلم فليتعلم، ويسعى كما يشاء ولسنا مسئولين عن آماله.

- وهل نترك مستقبل الأولاد لهم.. من يشاء ومن لا يشاء؟

- كل منهم يريد أن يكون له رأى.

- وأين هو هذا الرأى ؟

- ليبتعدوا عنى ويروا كما يشاءون .

- آه.. صدقت.. هذه هى الحقيقة.

- أية حقيقة ؟

- أن يبتعدوا عنك ويروا كما يشاءون .

نبت غضبه وبدأ فى التصاعد تدريجيا.

- لا .. لقد أصبحت مثلهم، تجادلين ولا تتعبين، ولم لا .. ألست جالسة طيلة النهار بلا عمل وأنا الذى أكد من أجلكم. أنا الذى أفكر

وأعانى لأرتب لكم حياة جديدة، لكنها على ما يبدو خسارة فيكم. لا تعرفون غير الحقد والحسد وكثرة الجدل وأنتم قاعدون.

أسرع بالخروج وصفق خلفه الباب بشدة .

* * *

(٦)

فى أحد الأيام دلف إلى الشقة رجل رفيع العود طويل القامة يرتدى البيريه فوق رأسه والسيجار فى فمه وله أذنان كبيران يشوب بشرته اخضرار.

أدركت أم أحمد بعد لحظات أنه زوجها عثمان الشحات. تنحنح عثمان ثم قال :

- تفضل يا مستر هنتر. تفضل يا أستاذ مهران.

استجاب هنتر وجلس على أول مقعد فى طريقه، وجلس مهران.

مضى عثمان يتحدث، ومهران ينقل إلى هنتر ما يريد قوله، أبدى عثمان معرفة ببعض الانجليزية، كما ظهرت معرفة هنتر ببعض العربية.

بعد كل جملة يفتح عثمان فمه ضاحكا ومقهقها، تبرق أسنانه البيضاء ونابان المتدليان إلى ذقنه.

تقدم عثمان من أم أحمد وانحنى فوقها وانحنت معه ربطة عنقه الحمراء. همس فى أذنها ببضع كلمات. نهضت أم أحمد ودخلت

المطبخ لتعود بعد قليل تحمل أكواب الحليب.

قدمتها لهم. شربوا وتذوقوا.

سأل عثمان : ما رأيك ؟

قال هنتر على الفور وهو يزن كوب اللبن بنظراته .

– عظيم.. ممتاز ودسم.

فك عثمان أزرار الجاكت الاحمر ووضع ساقا على ساق.

سأل : هل نبدأ؟

قال هنتر : من باكر.

قال الجميع : على بركة الله.

أصر عثمان أن يعانق هنتر الذى تأفف، لكنه ابتسم .

وبينما هم فى طريقهم خارجين، أومأ هنتر برأسه لأم أحمد محييا، ولم تستطع أن ترد تحيته، ولم تجد لذلك مبررا.

عاد عثمان بعد قليل، ضاحكا مستبشرا يكاد من الفرح يطير، ولم تستطع أم أحمد أن تمنع نفسها من السؤال .

– من هذا الرجل ؟

رد عليها عثمان بكل بساطة وهو يقلب فى شفتيه السيجار الضخم الذى أعطاه له هنتر : إنه مستر هنتر .

– ولماذا جاء إلى هنا ؟

- لا .. إنها حكاية طويلة.

- عثمان.. من هذا الرجل ؟

- سيشاركنى المشروع الجديد.

- أى مشروع ؟

- مشروع شركة للمواد الغذائية.

- ومن غيرك وهنتر ؟

- الدريدى صاحب العمارة .

- وما دخل الدريدى ؟

- هذا أصعب سؤال فى التحقيق كله.

- لماذا ؟

- لأن العبقرية كلها فى هذه النقطة.. الذكاء الحاد واللعب الكبير.

- عثمان . ما دخل الدريدى ؟

- أقول وأمرى إلى الله . ارتأيت يا سيدتى أن أفضل مكان لهذه الشركة هو حينا، وأحسن موقع فى حينا هو عمارتنا، وأنسب دور فى عمارتنا هو الدور الأرضى.

- لكنه محلات مؤجرة.

- نخليها.

قالت بفزع وكأنها هى المستأجرة : وأين يذهب المستأجرون؟

جذب نفسا وتمهل، ليتذوق طعم الدخان، ثم قال فى بساطة شديدة وكبرياء : ما شأنى.

- غير معقول .. أنت تفكر كما تشاء وتختار كما تشاء ومن تضعه حقوقه الشرعية فى طريقك تنزعه.

- سأمد أحبال صبرى حتى تفهمى، هذه محلات صغيرة. والمشروع الذى سأنفذه كبير ويخدم الحى كله.

فما الفائدة التى تعود من مكوجى وحلاق ومكتبة وصيدلية .

قالت فى شبه تحد أو فضول :

- وإذا لم يتنازل المستأجرون عن محلاتهم ؟

- هناك ألف طريقة وطريقة لإخراجهم.

- اسمح لى .

قاطعها بعنف : لا .. لن أسمح لك، فأنت كعادتك تحبين الجدل، ومخك كمخ أولادك راكد وكسول. هيا .. هيا.. نحى الكلام جانبا وأطعمينى.

لم يترك لها فرصة كى تفكر فى إطعامه.. حل بنفسه أزرار الثوب وأخرج الثدى.. احتضنه بكفيه وهو يقول :

- أنت الوحيد الذى يفهمنى فى هذا البيت، أعبدك بقدر ما أعبد الخيمة الزرقاء.. أيها الوغد المفعم بالرخاء.. يا ساكنا كجبل من

الصمت.. أنا قادم إليك لأجعلك إلاها يوما ما .

* * *

فى اليوم التالى

أبلغ الدريدى المستأجرين بالتخلى عن محلاتهم، انزعج المستأجرون وسعوا إليه بشتى الوسائل معترضين، فرد عليهم بالاقناع مرة وبالعروض المجزية مرة ثانية وبالتهديد مرة ثالثة .

رفضوا هذا كله فى عناد وإباء .

رفع الدريدى عليهم قضايا بالاخلاء، ردوا بعنف.. لكنه فى النهاية ربحها جميعا وتم الاخلاء.

هدمت الجدران التى تفصل المحلات وأعيد تصميمها وتقسيمها.

جهز المكان بالكهرباء العالية والمياه والسخانات وأنشأوا فى الركن حجرة زجاجية للادارة.

أعدت الأرفف وثبتت الحوامل وجاء الأثاث الخشبى والمعدنى ثم وصلت الآلات.

صعد عثمان مع بعض العمال إلى شقته وقاموا بحفر أربعة ثقوب كبيرة فى أرضية الشقة يكفى الواحد منها لمرور ذراع رجل.

بلغت الدهشة بأم أحمد حدا لم تحتمله، فكرت أن تحول بين الرجال وبين الحفر.. انعطفت إلى عثمان تسأله : ما هذا ؟ ما الذى

يجرى فى الشقة ؟

تبلد . تحجر. ثم قال : إنها توصيلة تليفون بينى وبينك لأحدثك حين أكون بالمصنع.

- ياه.. إلى هذه الدرجة يسخر منى ويستهزىء بى.. إلى درجة أن يكذب على هذا الكذب الفاضح الذى لا يقال لطفل.

طوتها فى نفسها للوقت المناسب، فعليها الآن أن تفهم ما يدور لا أن تنتقم.

أمر عثمان بتعليق لافتة طولها عشرة أمتار على باب الشركة ولافتة أخرى بعرض الشارع، ولافتة ثالثة على ناصية الشارع من جهة الميدان، ولافتة رابعة على ناصية الشارع من جهة المسجد والسوق.

كتب عليها جميعا :

(هنتر عثمان لمنتجات الألبان)

لما أعد كل شىء صعد عثمان إلى الشقة وفى كعبه بعض العمال، يحملون لفات كبيرة من الخراطيم، قاموا بإدلائها من الثقوب.

ثبت العمال على فوهة كل خرطوم من الخراطيم الأربعة وعاء دائريا فى حجم الكفين وله أزرار ومقابض.

خرجوا وخلفوا أم أحمد غارقة فى دهشتها وغضبها وحيرتها.

(٧)

فى صباح اليوم التالى وقبل الثامنة أيقظ عثمان زوجته أم أحمد.

- هيا .. هيا نجرى التجربة.

سألت وغلالة النوم تكبل لسانها :

- أى تجربة ؟

- التجربة التى ستكون باب الخير ومفتاح السعادة.

تثاءبت وقالت : وما شأنى بها، جرب كما تشاء .

- أنت إذن مستعدة. لا تخافى . خذى الأمور ببساطة (نطقها بالانجليزية).

حدقت فيه وفى الوعائين المثبتين فى الخرطومين.

- ماهذا ؟

- اهدئى ولا تنزعجى.

- لماذا أهدأ ، ما الذى تريده منى؟

- سنجرى التجربة.

- وما شأنى بها ؟

- آه .. يبدو أننا سنعانى الكثير بسببك وبسبب عقلك المتحجر.

نهضت بجزعها وجلست وقد تبعثرت خصلات شعرها فى كل اتجاه.

- ماذا تريد منى بالضبط ؟

وبصبر نافد قال : أريدك أن تنامى فنركب خرطومين من هذه الخراطين الأربعة فى صدرك.

فى فزع قالت : أجننت يا رجل؟ أهذا باب الخير، ماذا يدور برأسك. شيطان... إنك شيطان.

بالرغم من ثورتها فقد قهقه الشيطان، لكنه تمالك نفسه وطامن من قهقته.. قال بهدوء :

- أم أحمد يا حبيبتى. أرقدى لنجرى التجربة على صدرك.

حاولت أن تجاريه فى هدوئه فربما تفهم.

- وما دخل صدرى بالتجربة ؟

- إنه المشروع.

على غير ما أرادت اشتعل الغضب فجأة : أى مشروع ؟

- مشروع الألبان.. المواد الغذائية.. أنسيت ؟

- لم أنس . فما دخل صدرى بالمشروع؟

أشاح بوجهه بعيدا وقد بدا بركان غضبه يستعد لينفث حممه..

قال : مستحيل.. مستحيل.

لم تنطق بحرف . أغمضت عينيها وتمتمت كأنها تستعيذ بالله العظيم من الشيطان الرجيم.

لكنه يريد المشروع.. وهى المشروع. كتم غضبه وقال : أمرى إلى الله. عونك يارب. يا سيدتى ألا يحتاج مشروع الألبان إلى ألبان؟

قررت أن تكون قطة وديعة، بكل هدوء.

قالت : نعم.

– عظيم. بدأت تفهمين.

– فمن أين نضمن لهذا المشروع موردا مستمرا من اللبن؟

– هذا أول شىء كان يجب أن تفكروا فيه.

– عظيم . لقد تقدمت بسرعة. هذا هو بالفعل ما فكرنا فيه، ووجدناه لحسن الحظ قريبا منا.

– إذن ما هى المشكلة ؟

– أنت.

– وما علاقتى ؟

– أنت المصدر.

– أى مصدر ؟

– مصدر الألبان .

- أنا لا أقبل هذا أبدا .

اذن فلن نستطيع أن نحقق ما نريد، لن نصل إلى الغنى أبدا. سنظل فى الفقر. فى الجوع. فى الضياع.

اندفع يشرح ويشرح، بغضب حينا وبهدوء حينا آخر، ترفعه موجة وتلقيه أخرى، وهو يتحدث عن الزمن والعالم والظروف والتغير و.. و.. وهى لا تسمع شيئا ولا تعى شيئا. ذاهلة. جامدة كجثة.

مد يديه إلى الخراطيم فركب منها اثنين فى ثدييها وبقى الآخران احتياطيين .

مضى إلى الغرفة الثانية فأيقظ ولده ابراهيم.. أمره أن يهبط إلى العمال فيطلب منهم البدء .

دارت الآلات فى المصنع.. سمع صوت المحرك وهو يعمل بحماس ويسحب اللبن من الثديين الخصيبين.

هكذا شرعت شركة هنتر عثمان لمنتجات الألبان فى تصنيع الحلوى والزبادى والجيلاتى واللبن المبستر والكريمة والرز باللبن والكنافة باللبن.

عبأت المنتجات فى علب من البلاستيك بيضاء أنيقة، عليها صورة أم أحمد وهى تضحك فرحة.

تعانق الدريدى وهنتر وعثمان حين شاهدوا الآلات تعمل بانتظام. واللبن يتدفق بوفرة، والناس تفد من كل فج ليتفرجوا ثم يبدأوا فى الشراء، ويزداد عددهم يوما بعد يوم حتى أصبحت مؤسسة هنتر هى الوحيدة التى تبيع هذه الأصناف.

صحيح أنها غالية، لكنها أنيقة ونظيفة وجيدة التعليب، وعليها صورة أم أحمد وقد كتبوا تحتها على لسانها عبارات بالانجليزية.

صعد عثمان إلى الشقة فأصدر أوامره بألا يقترب الأولاد من أى ثدى فى جسم الأم، والذى يريد أن يأكل فليشتر من المصنع، أو ليذهب فيشترى من أى مكان يشاء.

سار العمل على أفضل صورة، وفوجىء عثمان والدريدى بكمية الزبائن الهائلة المقبلة عليهم، بل والشركات والهيئات والمصانع التى تشترى بكميات كبيرة وتحجز الانتاج لشهور قادمة.

أما أحمد وخالد وباقى الأولاد فقد أبوا أن يشتروا من هذه المؤسسة بقرش واحد.

ارتأوا أن المشروع كله قائم على لبن أمهم، ومعنى شرائه، أن يدفعوا مالا مقابل لبن أمهم.

وزاد فى سخطهم على عثمان، منظر أمهم وهى تضحك فى الصورة المطبوعة على علب الجيلاتى والزبادى.

حاول كل منهم خلسة أن يستخدم ثديه المخصص له فى جسد أمه، لكن المسألة لم تستمر طويلا، اذ كان عثمان يراقب.

فتح الباب فجأة فى أحد الأيام، فوجدهم جميعا يرتشفون من اللبن، وإن كان ما يتناولونه لا يتعدى القطرات، بسبب قوة السحب من الثديين الكبيرين.

ثار وأرعد وأمسك أحدهم فرفعه بأظافره الطويلة، وزلزل جسده عدة مرات ثم صفعه بعنف وألقاه بعيدا، تلفت حوله يبحث عن الباقين، كانوا قد هربوا حين سمعوا ورأوا غضب عثمان، وأسنانه التى تزمجر كدبابة مهرولة.

عادوا يشربون من ثدى أمهم بين الحين والحين، وأدرك عثمان أنهم لم يرتدعوا فطردهم من الشقة وغير الأقفال .

لم يعد باستطاعتهم الدخول، فهاموا فى الشوارع على غير هدى، لا يدرون ماذا يفعلون، لكنهم فى النهاية قرروا مواجهة المشكلة.. اجتمع أحمد وخالد وابراهيم وعلى ليتبادلوا الرأى ويحددوا الخطة المناسبة لبدء الصراع مع الأب وزوج الأم عثمان الشحات..

– من غير المعقول أن ينهب هو والغرباء خير أمنا .

– نلقى عليهم الحجارة فنحطم أثاثهم ونوقف آلاتهم.

– بإمكانه أن يبلغ البوليس فيحتجزوننا.

– إذن نشعل فى معملهم النار.

– الحراسة مشددة.

– إذن نقطع الخراطيم.

– هذا أفضل الحلول، ولو أنه حل مؤقت.

– إنه البداية.

– لكن كيف ؟

– من الشقة.

– كيف ندخلها؟

– نطرق الباب فتفتح الأم.

– ألا تعلم أنه وضعها فى فراش حديدى حتى لا تتحرك من مكانها فيظل العمل مستمرا. وهو لا يرفع الوعائين الساحبين عن صدرها إلا بعد العاشرة مساء.

– إذن فلا أمل إلا بقصها من داخل المعمل.

– لن يتيسر ذلك لأنه لا يسمح بدخول الغرباء .

– وهل نحن غرباء ؟

– لقد أصبحنا غرباء.

– لا يمكننا أن نصبح غرباء، والظفر لا يطلع من اللحم.

– نحن لسنا غرباء فحسب، بل نحن بالنسبة له أخطر من

الأعداء.

- تحتاج المسألة إلى تفكير جديد.

خيم الصمت المجهول لحظة إلى أن قال أحمد فى سهوم :

- هبط الثلج فى بلادنا لأول مرة.

- من أين جاء ؟

- ألا تطل من السماء بارقة أمل ؟

- لا تبحث عن أمل خارج الرقعة التى أمامك.

- كيف ؟

- الحالة التى وصلنا إليها هى الحالة التى وصلنا إليها.

- ماذا تعنى ؟

- أعنى أن أمكم قعيدة ونحن خارج الدار، ماذا بإمكاننا أن نفعل؟

- هل نرفع رايات الصمت ؟

عم السكون فجأة .

قال خالد فى وجوم : سامحك الله يا أمى.

- كان لومها حق فى الماضى حيث اختارته ونحن صغار، أما الآن فاللوم علينا.

- الأفضل أن نلتقى بأمنا ونستطلع رأيها قبل أن نقدم على

شىء، لا شك أنهـا تحس مـثلنا بالمشكلة، أضف إلى ذلك نظرتهـا الأبعد فيما يجب عمله.

قال الكل : تمام.. تمام.

– أنت يا أحمد الذى تذهب إليها.

– لكنكم قلتم أن بابها مغلق عليها.

– المواسير الخلفية .

– هل نأتى معك ؟

– لا ..

– بل سنأتى ونقف إلى جانبك حتى تصعد ، ثم ننتظرك لنعرف رأيها.

* * *

(٨)

تسلق أحمد مواسير المجارى بعد الغروب. بلغ نافذة المطبخ. ألفاها بعيدة، لكنها مفتوحة. حسب المسافة. تجاوزت المتر. وزن الموقف. تبين له صعوبة القفز. قرر ألاَّ يتراجع . تصور أن أمه فى داخل الشقة تحترق وعليه أن يندفع لإنقاذها.

قبل أن تمر ثانية واحدة لتفكير آخر، تشبث بفخذيه فى الماسورة وارتمى بجزعه فى الهواء، تعلق بذراعيه فى حلق الشباك. أطلق فخذيه عن الماسورة.. تدلى فى الفضاء. تريث برهة ليلتقط أنفاسه التى توقفت حتى تتم المخاطرة، رفع جسده إلى أعلى معتمدا على يديه وقوة ساعديه. بلغ صدره النافذة.

أسند إليها إحدى ركبتيه. تعلق بسقف النافذة وطلع بالثانية. قفز إلى داخل المطبخ فى خفة.

كتم أنفاسه. أصاخ السمع. لم تتناه إليه إلا رائحة الصمت المتعفن. تقدم خطوات حتى تجاوز باب المطبخ فلم ير شيئا. فى عجلة تسلل المساء إلى الشقة. لمح أمه كسفينة غارقة فى قاع البحيرة

المعتمة من أيام الحرب.

كانت مستلقية فى سكون .. وجهها كعادته يضىء الظلمة.

تقدم نحوها خطوة.

قال لها بكل الحنان والشوق : مساء الخير يا أمى.

لم يبلغه منها رد ولا حركة. ساوره القلق. أضاء مصباح الكهرباء. حدق فيها فألفاها ترنو إليه فى هدوء وعلى شفتيها ابتسامة مغلولة.

ألقى بنفسه عليها وقبلها فى الجبين والخدين واليدين والقدمين.

انهمرت دموعه بعنف وضاع من رأسه كل ما جاء من أجله، كلما حانت منه التفاتة إلى الخراطيم والأوعية الماصة عاد فبكى.

تفتتت شجاعته وتطايرت أفكاره بعيدا .. بعيدا .. وكلما بعدت تضاءلت وتضاءلت حتى تلاشت.

انحط على الأرض . استند بظهره إلى الجدار. أخذ يرنو إليها فى صمت. دارت عيناه فى المكان. كل ما حولها يابس كشجرة هجرها الربيع.

فوجىء بالغبار الكثيف يغطى كل شىء. العناكب تحتل كل ركن، وتتدلى لتلتقط فرائسها.

تذكر أحمد أن عم عثمان زوج أمه لم يعد يبيت بالشقة وإنما يقيم

بشقة أخرى جديدة فى ضاحية جميلة. ترك أمر الغبار والعناكب والصمت.

حاول أن يجمع شظايا أفكاره المهشمة والمتناثرة.

رنا لأمه. ألفاها تحدق فى الفراغ والفراغ يحدق فيها. قال بعد أن امتلك أعصابه وهدأ خاطره :

- أمى.. أمى.. اشـتـقت إليك، هل تسـمـعـيننى .. أمى.. لم لا تجيبيننى.. قولى كلمة.. أين نظرتك الواثقة؟.

ترقبها لتقول كلمة، فلم تهمس بحرف.

استطرد وهو يتأملها محاولا اجتذابها لمحادثته.

- بالرغم من هذه العروق النافرة فى عنقك فلا زلت جميلة. تتفجر من عينيك الأحلام.

عاد الصمت يغلبه. هز رأسه. لكنها تنحنحت.. رفع رأسه نحوها فجأة، كأنه اكتشف أنها ما زالت حية.

قالت فى وهن : أنا مجهدة. منهوكة القوى. ممصوصة. فارغة. فارغة ككوب تجرع العطشان كل ما فيه.

اندفع فى أمل : ما زلنا نأمل فى حياة أخرى.

قالت : مجرد صبية تنفخ فى البوق.

طعنته كلماتها. نفذت تحت ضلوعه. أوشك أن يتهاوى.

قال : والعمل ؟

– معه أو ضده.

– كيف نعمل معه؟. أنساعده فى امتصاص خيرك. فى القضاء عليك. لك الله. إلى هذا الحد بلغ استسلامك له ورضاؤك بقدره؟.

لم تجبه.

– تبدين ساهمة كمن يفكر فى أمر ما .

– لابد لمن يفكر فى أمر ما أن يكون له أمس وغد، وأنا هنا منفية بلا ذاكرة. مخلخلة من الداخل .. كل ما فى يدخل فى صناعة اللبن المجفف والحلوى.. حتى أفكارى وذكرياتى وأيامى الجميلة.

أغمض عينيه وتنهد.. قال وهو يستمتع بالتذكر .

– آه .. كنا نسعى إلى الحدائق. فى أيدينا سلال الطعام والفاكهة. على شفاهنا تتواثب أغانينا العفوية. عيوننا تسبح فى سماء صافية، تراقب الطيور المتعانقة فى ابتهاج.

توقف لحظة.

لم يجد فى مرآة وجهها أى انعكاس لكلماته .

– أمى.. ألا تملكين شيئا ؟

– أنا لا أملك حتى تصحيح وضع ركبتى.

– قولى كلمة.

– كلمة.. ماذا صنعنا بالكلمات؟.. كانت طول عمرها بساتين نرتاح لشم ورودها، ويهدأ بالنا بلمس نعومة أوراقها.

– أصغرنا غدا الآن رجلا يعمل ويفكر .

قالت بلا مبالاة : حسن.

قال بانزعاج : حتى الدهشة ماتت فيك .

شعر أحمد بسخط شديد على الدنيا والزمن وكل شيء :

– سأذهب يا أمي.

– اطفيء النور وإلا أدركوا أنك كنت هنا.

أغمض عينيه في ألم بعد أن تأكد أن حالة أمه غدت سكينا يشق صدره.. أدرك حجم الجريمة ومرارة السكين، تحمل الطعنة.. طوى عليها أحشاءه. أطفأ النور. غرقت الشقة في الظلام.

حملت محفة الأسى جسده المفتت إلى الخارج. ألقت به إلى أخوته.

* * *

اجتمع الأولاد وقرروا الشروع في أي عمل لإنقاذ الأم.

في اليوم التالي .

وفي نفس الموعد صعد أحمد إلى شقة أمه وقطع الخرطومين تسقطا من الثقبين إلى الدور الأول في المعمل.

قام العمال بتشغيل الخرطومين الاحتياطيين، ولم يتعطل الإنتاج أو التوزيع، أمكنهم أيضا اصلاح الخرطومين المقطوعين.

حنق الأولاد على المصنع وعلى الشحات، إذ أن ما صنعوه لم يفد كثيرا فى وقف العمل.

فى اليوم التالى، وفى نفس الوقت تقريبا، صعد خالد فخلع عن أمه الوعائين الساحبين وأسرع بالهبوط .

فوجىء العمال بتوقف امداد اللبن دون سقوط الخراطيم، انتظروا أن ينهمر اللبن بعد دقائق أو حتى نصف ساعة فلم تبلغهم قطرة.

لم يكن عثمان بالمعمل فلما جاء أخبروه.. أسرع إلى الشقة.. وجد أن الوعائين منزوعان عن الثديين. أعادهما إلى موضعهما وعاد الانتاج سيرته الأولى.

ألقى نظرة على أم أحمد قبل مبارحة الشقة. ألفاها كما يجب أن تكون. قعيدة فى فراشها الحديدى والمقابض من حولها، تحول بينها وبين الحركة.

* * *

فى اليوم التالى وفى نفس الوقت تقريبا، صعد على وخلع الوعائين عن أمه، وحدث ما حدث بالأمس، وعولج الموقف وعاد المعمل للإنتاج، لكن الشحات شك بالأمر.

ركب قضبانا من الحديد على النوافذ وأعاد تغيير الأقفال.

جاء دور ابراهيم ليصعد فى اليوم التالى لرفع الوعاء الماص عن أمه، لكنه بعد أن صعد إلى النافذة واجهه الحديد وحال بينه وبين الدخول فانثنى راجعا، وعند بلوغه الأرض أمسك به الرجال الذين كانوا يرقبونه.

جروه إلى الشحات الذى رأى فى ابراهيم حية سامة. ولم ير فيه ابنا أو قريبا.. حدق فيه فترة.. زفر فى غضب. اصطكت أسنانه. خاله ذئبا سينهش لحمه.. انقض على عنقه. تشبث به. نفذت فيه أظافره الطويلة، وأحاطت به أصابعه الأخطبوطية..

حمله إلى أعلى وألقى به فى الفضاء، فدار جسد ابراهيم ودار ثم وقع على الأرض. رقد ساكنا. لم يسترد وعيه إلا عندما جاء رجال الشرطة للقبض عليه.

احتجزوه أياما. توقف خلالها نشاط أخوته الغاضبين، ولما عاد حكى لهم ما قاساه..

عادوا يفكرون، ماذا يفعلون ؟

قال إبراهيم : لماذا لا نفكر فى البعد عن المنطقة كلها ونبحث لنا عن شىء آخر؟ أقصد أن ننزع فكرة محاربته من أذهاننا.

رد خالد : هل نتركهم يمتصون خيرها ويتجرعون دمها؟.

قال ابراهيم : لكنه فى النهاية سيعود علينا بلا شك.

قال خالد فى فزع : أى نهاية يا مجنون.. وبعد كم من السنين؟

قال أحمد مقاطعا : ليست المشكلة أن يؤول إلينا أو لا يؤول. المشكلة هى لماذا لا يبحث له عن تجارة أخرى غير هذه التجارة. أو يتخذ له عملا آخر لا يعتمد فيه على دمها ولا يأخذ لبنها؟، فبدلا من تفكيره فى إنتاج شىء جديد تماما، يأخذ الأسهل والأقل تكلفة.. مال الدريدى وأجهزة هنتر ولبن أمنا.

قال على : والحل ؟

غلبهم الصمت حتى بدا أنهم لن يستطيعوا التخلص منه.

* * *

(٩)

بعد أيام.. وفى وضح النهار .

صعد الأخوة الأربعة إلى شقة أمهم.. يحملون أدواتهم، وبها خلعوا باب الشقة خلعا.

دخلوا على أمهم. وقفوا أمامها فى صمت كمن يصلون على جثة عزيز .. قالوا فى نفس واحد :

– عذرا يا أماه.. نرجو أن تسامحينا .

استل كل منهم من ثيابه مدية، وأغمدها فى صدر الأم .

استداروا عائدين، وفى صمت هبطوا الدرجات.. حاملين المدى تقطر دما .

هتف العمال فى المعمل إذ رأوا اللبن فى الخراطيم ينثال منها إلى الخزانات والغلايات أحمر اللون كالدم .

– اللبن أحمر اللون يا عم شحات .

قال لهم وهو فى موضعه، منشغل بحصر الأموال .

– أحمر . أزرق. أى لون، كله يمكن تعبئته وكله يمكن بيعه.

استمروا.. استمروا. املأوا الزجاجات وأعرضوا الانتاج الجديد .

فقط استدعوا الخطاط ليضيف إلى اللافتة المكتوب عليها «هنتر عثمان لمنتجات الألبان».

كلمتى

.... «وعصير الفواكه».

* * *

قبل الفجر هب أحمد من نومه ينتفض رعبا وهو يصرخ :

– أمى لا .. أمى لا .

ابتلع ريقه وتنبه : أعوذ بالله.. أعوذ بالله.

كان كابوسا ثقيلا إلى أقصى حد . لعنة الله عليه.

ربما لأنى تناولت عشائى ونمت، وربما لشدة قلقى على أمى، وربما بسبب ما جرى لابراهيم .

فى فراشه بقى أحمد مهدم الجسد، النوم أبى أن يغمض جفنيه .

طلع الصباح عليه وهو فى السرير مسهدا يفكر ويفكر.. الخيوط كلها مهلهلة لا يستطيع أن يربط بينها.

قفز من السرير فجأة.

حملق فى اللاشىء .

تابع فى اهتمام فكرة وليدة أطلت من مركز ما أو ركن ما .

أنصت ليدع الفكرة تفصح عن نفسها، رحب بها وأعجب بمنطقها.

ارتدى ملابسه على عجل والتقى بأخوته.

قص عليهم الحلم فانزعجوا.

حسبوا أنه جاء إليهم ليعرض عليهم تنفيذ ما رأى.

قالوا : لست وليا من أولياء الصالحين ولا من الملهمين الواصلين.

قال : بل لقد أوحى لى ذلك بفكرة.

وعرض عليهم فكرته الجديدة.

شملها رضاهم فاتفقوا .

* * *

(١٠)

أسرعوا بالذهاب إلى الشقة.

كانت الساعة السابعة صباحا وأبوهم يذهب إلى أمهم فى الثامنة، ليركب فى صدرها الوعائين الساحبين.

بأدواتهم خلعوا الباب خلعا.

تقدموا من أمهم.. لم تكن مثبتة فى الفراش الحديدى. وفى حنان قبلوها فى الجبين والخدين واليدين، وقبلتهم... ضمتهم بحرارة وودت لو ظلوا هكذا طول العمر وودوا.

قالت من خلال بسمة راقصة :

– لست أدرى يا أبنائى لماذا أنا اليوم مبتهجة.

– ونحن أيضا .

وضعت يدا على كتف أحمد أولهم من جهة اليمين ويدا على إبراهيم.

احتوتهم بنظراتها المشتاقة.. سنين. سنين. أيام وشهوز وساعات ودقائق وثوانى.. لم ترهم. أبناؤها لم ترهم.

احتوتهم وأغمضت عينيها .. احتوتهم وأغمضت عينيها وانثالت دمعة . دمعتان.. دموع.

عانقتهم.. وتنهدت.

بالنظرات قاستهم طولا وعرضا .. وتفحصتهم وجوها وعيونا وحرارة..

- لقد كبرتم .

- نعم .. نعم .

- وتعملون ؟!

- نعم .. نعمل.

- يحب كل منكم الآخر؟

- لا غنى لأحدنا عن الآخرين.

- فماذا حفزكم اليوم بالذات على زيارتى ؟

- أنت .

- كيف ؟

- أنت حافزنا .

بدت كمن لا تفهم. دارت فى الصمت لحظات تبحث عن السؤال الذى تريد له إجابة.. حتى وجدته :

- هل أنتم سعداء ؟

– يجب أن تكونى السعيدة أولا حتى نكون.

– مصيرى ليس بيدى.

– ليكن بأيدينا.

– كيف ؟

– سترين .

– أفصحوا .

– لقد جئنا لنقيم معك فى شقتك.

– أغلى ما تتمناه أم .

– وما الذى يمنع ؟

– أبوكم.

وقبل أن ينطقوا بحرف، تناهت إلى أسماعهم طرقات أقدام على السلم.

– هاهو قد جاء. سينزعج إذا وجدكم. أسرعوا.

– لن نبرح المكان .

دخل. رآهم. فنجل عينيه. قطب جبينه. تلفت.. اضطرب. لحظات صمت ونظرات متحفزة.. صمت يتخلله تراشق بالنظرات.. سهام ترد عليها سهام.

– ماذا تفعلون هنا ؟

- وهل يسأل أحد عن وجوده فى بيته؟!

- ما شاء الله . ما شاء الله.

طارت نظراته فى الشقة تفحصها. وتطمئن على النوافذ والجدران وعلى الأم .. تبحث عما جرى بها غير الباب المستند إلى الجدار.

- ما هذا الذى فعلتموه بالباب ؟

- ماذا فعلت أنت بالباب ؟

بهت الرجل وبدأ يجمع شتات فكره وأعصابه.

- ماذا تريدون ؟

- ماذا تريد أنت ؟

جف حلقه. بلع ريقه. بل شفتيه. استدار إلى أم أحمد .

- ما هذا يا ست هانم؟

- أجبنا نحن واسألنا نحن.

- هيا يا أم أحمد إلى الفراش . الساعة تجاوزت الثامنة .

- لن يضمها هذا الفراش ما دمنا أحياء.

- أنتم تسيئون إليها وإلى أنفسكم .

- نعرف ذلك .

جنح للدهاء وتسلح بذكائه الشهير .

- يا أحمد يا بنى عيب .. لا يليق هذا برجال مثلكم .

– وما تفعله. أيليق بأب أو زوج.

– أنا أبصر منكم بالأمور .

– أنت أبصر منا بمصلحتك الأبدية .

– لا تخطأوا حتى لا تقعوا تحت طائلة القانون.

– هذا ما نريده .

– اذهبوا إليه .

– أنت الذى تذهب .

لم يجد جدوى من الحديث معهم. تجاهلهم. حاول تركيب الوعائين بصدر الأم وهى واقفة. نزعوهما وحطموهما بالأقدام.

سعى عثمان لاستنقاذ الوعائين فلم يفلح.

زعق : يا كلاب . يا دون. يا ناكرى الجميل آه.. يا لحظك التعس يا عثمان فى أبناء عاقين.

دار حول نفسه. لم يجد ما يفعل. بدت جلية حيرته. أكل أنيابه. اتسعت فتحتا أنفه.. خار كالثور .

ثم قال : أهكذا إذن !.

بارح الشقة فى حركة عنيفة، والكلمات المضطربة تتقافز بين شفتيه وأنفه ويديه.

هبط الدرجات، لكن صوته العالى ظل يدوى على السلم إلى أن

بلغ الشارع.

يهدد ويتوعد، يحطم الرؤوس ويقطع الرقاب ، يطرد ويشرد . يسجن وينفى .. كلمته هى النافذة فهو يستطيع ويستطيع..

انشغل الأولاد باصلاح الباب وإعادته لحالته الطبيعية، أسقطوا الخراطيم فى المعمل وسدوا الفتحات الأربعة.

لما عادت الشقة شقة ..

تمدد كل منهم فى ركن، وأمهم ترنو إليهم فى حنان ونشوة افتقدتها منذ سنين.

قالت :

- أنا يا أبنائى اليوم مبتهجة.

قالوا بلسان واحد : وغدا يا أماه.. إن شاء الله.

بنها فى يناير ١٩٨٠

صدر للمؤلف

أولا: مجموعات قصصية:

١ - عقدة النساء	١٩٧٨
٢ - كلام الليل	١٩٧٩
٣ - العجز	١٩٨٣
٤ - عسل الشمس	١٩٩٠
٥ - شدو البلابل والكبرياء	١٩٩٤
٦ - الغندورة	١٩٩٦
٧ - زهرة البستان	١٩٩٩

ثانيا: الروايات:

١ - أشجان	١٩٨٠
٢ - الناب الأزرق	١٩٨١
٣ - السقف	١٩٨٤
٤ - عشق الأخرس	١٩٨٦
٥ - شفيقة وسرها الباتع	١٩٨٦
٦ - موسم العنف الجميل	١٩٨٧
٧ - عصر واوا	١٩٩٣
٨ - بذور الغواية	١٩٩٤
٩ - روح محبات	١٩٩٧
١٠ - حكمة العائلة المجنونة	٢٠٠٠
١١ - الحمامة البرية	٢٠٠٣

ثالثا: الدراسات:

١ - كيف تختار زوجتك؟	١٩٨٦
٢ - محمد مندور شيخ النقاد	١٩٨٧
٣ - نجيب محفوظ كاتب العربية الأول	١٩٨٨
٤ - إحسان عبد القدوس عاشق الحرية	١٩٩٠
٥ - أدب الرحلة فى التراث العربى	١٩٩٥
٦ - رعاية الموهوبين	١٩٩٨
٧ - صناعة التقدم فى مصر	٢٠٠١
٨ - فن كتابة القصة	٢٠٠٢

صدر من هذه السلسلة

١ - آلام صغيرة وقصص أخرى - الفائزون فى مسابقة القصة القصيرة عام ١٩٩٨
٢ - يوميات عروبة - د. هانى الرفاعى
٣ - مارواه البحراوى - عبد الرحمن شلش
٤ - أبناء نادى القصة - محمد محمود عبد الرازق
٥ - زوجتى لا تريد أن تتزوجنى - فتحى سلامة
٦ - الحى الراقى - فتحى مصطفى
٧ - الياسمين يتفتح ليلا - عزت نجم
٨ - حدائق السماء - محمد سليمان
٩ - الفائزون بجوائز آخر القرن العشرين - الفائزون فى مسابقة القصة القصيرة
١٠ - دلونى على السبيل - محمد الشريف
١١ - الجدة حميدة - حسن الجوخ
١٢ - فستان زفاف قديم - على عيد
١٣ - بحر الزين - حسن نور.
١٤ - من أوراق العمر - محمد كمال محمد
١٥ - إحراج - نادية كيلانى
١٦ - البنات - هدى جاد
١٧ - عاد الأسد .. أسداً نبيلا - عبد المنعم السلاب
١٨ - عراف السيدة الأولى - محمد القصبى
١٩ - حكايات عن العربيد - صلاح عبد السيد
٢٠ - السلمانية - صلاح معاطى
٢١ - الفائزون أول القرن الحادى والعشرين - الفائزون فى مسابقة القصة القصيرة
٢٢ - صبحى الجيار والمحنة المضيئة - مصطفى عبد الوهاب

٢٣ – الرغبة الوحيدة – صوفى عبد الله
٢٤ – الغزال فى المصيدة – محمود البدوى
٢٥ – خراط البنات – صفوت عبد المجيد
٢٦ – القصة القصيرة عند ثروت أباظة
وقضايا المجتمع – حسين عيد
٢٧ – حوار مع جنية – عصام الصاوى
٢٨ – ليلة موت – عبد الحميد الفداوى
٢٩ – حبيب حبيبى – درويش الزفتاوى
٣٠ – لقاء غير متوقع – محمد صفوت
٣١ – التوأم وقصص أخرى – الفائزون فى مسابقة نادى القصة للقصة القصيرة
٣٢ – أكثر من عمر – عبد الفتاح مرسى
٣٣ – من حياة الحياة – رستم كيلانى
٣٤ – فرحة الأجراس – عبد العال الحمامصى
٣٥ – أنا .. ونورا .. وماعت – رفقى بدوى
٣٦ – الليلة الثانية بعد الألف – مختارات من القصة النسائية فى مصر – إعداد وتقديم يوسف الشارونى
٣٧ – ثلاثية آدم وحواء – عماد الدين عيسى
٣٨ – الأحلام تتمشى فى الذاكرة – محمد الفارس
٣٩ – بين الحكى والنقد – نبيل عبد الحميد
٤٠ – مواسم الشروق – أحمد الشيخ
٤١ – السقف والناب الأزرق – فؤاد قنديل

الإصدار القادم

– الفيل الأبيض الوحيد – محمد حسن عبد الله

شركة الأمل للطباعة والنشر
(موارفيتلى سابقاً)